إعجاز القرآن وتأثيره على ثبات العقيدة في مواجهة الطاعنين

دكتور / محمد محمود شحاته
مدرس العقيدة والفلسفة بالكلية

مقدمـــــة

الحمد لله الذى شرف بالقرآن أمتنا وثبت به القيم وجلى به الحقائـــق وتوج به الكائن المختار لخلافة الله فى الأرض وجعله منحة فياضة معطاءة تمــد الإنسانية بكل حاجاتها فى العقيدة والأخلاق والسلوك بهدف هداية السبيــل وإنارة الطريق للأمم والجماعات الإنسانية ثم كان حجة الله القائمة على خلقـــه إلى يوم الدين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى كان خلقه القـرآن ووصيته أن يكون القرآن ميراث أمته جيلا بعد جيل ٠

أمـــا بعـــد

فإنه ما من شك فى أن القرآن وعلومه أول ما يجب أن يشغل العقول فى أمة رضيت بالله ربا وبالقرآن هداية عالمية تتولى قيادة الكون ، باعتبار أن القرآن هو الأساس الذى تنبنى عليه عقيدة التوحيد ، ورفع القيود عن الفكر ،وإزاحة الوثنية من طريق الكلمة الحرة التى ترشد العقل السليم إلى توحيد اللـــه ، وليس بخاف أن الهدف هو تحرير الفرد من تقاليد الجاهلية وشريعتهـــــا الناتجة عن شركها ووثنيتها وإحلال جبابرة البشر محل الله فى إرشاد العقــول وهدايتها فما جاء القرآن فى الأساس إلا لتشييد صرح العقل المسلم وتحريــره من أوهام العابثين الذين يأبون إلا السدور فى غيهم جريا وراء مغنم عــارض أو سعيا وراء قداسة زائفة اصطنعوها لأنفسهم غرورا بدنياهم التى ليســـت بذات مقام ويأبى الله إلا أن يتم نوره بإرسال رسول كريم وإنزال كتاب عزيـــز يلبى حاجات الإنسانية الراقية ويجيب على أسئلتها الحائرة فاستهوى أفئدة المسلمين الذين أحسوا به وتذوقوه فعكفوا عليه يطلبون منه علوما مختلفة هـــى أساس لخدمة قضية التوحيد وما تفرع عليها من قضايا خاصة بالاجتماع الإنسانى أثناء مسيرة التاريخ باتجاه الحضارة ٠ وبالفعل فقد أنتجت الدراسات القرآنية للعالم المعاصر ثمارا يانعة نمت وترعرعت فى حضن البيئة الإسلاميه معبرة عـــن البناء العقدى المؤدى إلى استقرار المفاهيم الإسلامية وأولها أن الإســـلام دين عالمى ذو دعوة شاملة يجب أن تعم أرجاء الكرة الأرضية بعقيدتها الــتى لا تعرف الحدود ولا الأوطان ٠ وقد شـاء الله لى أن أعالج بالبحث والتحليل مسألة إعجاز القرآن وتأثيره على ثبات العقيدة فى مواجهة الطاعنين والحاقدين

الذين يعمدون إلى وضع أطر فكرية غريبة عن أرضنا ومناخنا الفكرى منصبين أنفسهم للقضاء والحكم على عقيدتنا فى داخل تلك الأطر والصياغات النظرية الغربية استغلالا لغيبة العقل المسلم فى بعض حقب التاريخ ، ويعد من نافلة القول أن نُذكِر بأن المتكلمين قد تناولوا هذه القضية وأبلوا فيها بلاء حسنا مدافعين عن هذا الدين رغبة فى إبعاد خصومه عن محاولة النيل منه عن طريق الطعن فى إعجازه ، فلا غرو كان حديثهم مصبوغا بصبغة عقدية فلسفية باعتبار أن التيارات الوافدة على هذا الدين قد أغرقتهم بمسائل وافدة وأساليب جديدة لم تكن مستخدمة فى عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحتى قرب انتهاء القرن الأول الهجرى فكان من الطبعى أن يستخدموا نفس السلاح فى رد الخصوم ودحرهم .

ثم رأيت أن أواصل المسيرة على الدرب باذلا أقصى ما أستطيع فى المقارنة والموازنة مضيفا ومحررا لاتجاهات القوم مرتضيا منهج التحليل فى الوصول إلى النتائج التى استخلصها على نحو ما تعرف القواعد العلمية .

هذا وإننى لا أزعم أننى قد أتيت على النهاية ولكنها محاولة على طريق المعرفة وإزاحة بعض العقبات من طريقها وقصارى أننى مهدت السبيل وأوضحت الطريق لمن يأتى بعدي ممن يرزقه الله قدرا أعلى من بحار معرفة الهداية القرآنية العاصمة من الزلل إلى قيام الساعة .

والله ولى التوفيق

تمهيـــــــد

في البداية أقرر أن العكوف على قراءة القرآن ثم دراسته ومحاولة استخراج مافيه من معان تثير الفؤاد بوقعها وتدفعه دفعا إلى اعتناق هذا الديـــن الذى جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) في موعد كانت الدنيا تنتظر مـــن ينقذها ويخصلها من الاضطراب العقدى والفكرى والاجتماعى فجاء محمـــد (صلى الله عليه وسلم) والبشرية في شبابها العقلى بعد أن تجاوزت طور الطفولة بحيث تستطيع هضم الركائز الفكرية وتدرك ــ لو أنها أرادت أن تعقل ــ ماجاء به لولم تتحكم فيها الأهواء ونوازع الشر ، ولعل هذا هو السر في ختم الشرائع بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم). تلك الشريعة التى جمعت كل الأصـــول الثابتة ، وصححت ما اختلف فيه أهل الديانات تبعا للنوازع الفرديـــــة والأهواء الشخصية رغبة في تنمية المصالح الخاصة دون اعتبار للقيم ودون خـوف قد يذ بها وتضاربها ، ووسيلتهم في ذلك إما الكذب وإما إضافة مدخـــولات مبتدعة حاولوا تثبيتها بمختلف الطرق حتى طال الأمد عليها وألفتها الأجيـال حتى صارت ــ في عرفهم ــ جزءا من هذا الدين أو ذاك لاغرو كانت شريعة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ناسخة لجميع الشرائع التى سبقته في الوجـــود الزمنى وقد استمدت هذه الشريعة أمنها وضمان استمراريتها من منزلها الــــذي تكفل بأمرين يضمنان لها دوام الدفع والانطلاق واختراق العقبات البشرية التى عادة ما تكون ناشئة من تجمعـــات الحاقدين الذين يضعون مصالحهم الشخصية قبل أى اعتبار ، حتى وإن كان هذا الاعتبار مضادا العقيدة أو محطما لسلـوك الخير لدى الجماعة البشرية .

أولهمـــــا :

تربية العقيدة في النفوس تربية صحيحة تقوم على توحيد الله (عزوجـل) وتنزيهه عن شوائب النقص التى تشوب الغير وذكر لنا من الصفات (ما أوجـــب علينا أن نعلم دون أن يطلب التسليم به لمجرد أنه قرره ولكنه أقـام الدعـــوى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقـــول وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليــــه) (١)

---

(١) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص٦ ج٧ ط المنار ١٣ .

حتى إنه جعل الدليل ركيزة لأية مفاهيم يتغيى تثبيتها فى النفوس حتى فى مجال الأدب والأخلاق والدعوة ، فطالب الداعية أن يتخير أنسب الأوقات ويتعهد النفس البشرية تحسبا للوقت الذى يحسن فيه تلقى المستقبلين لهذه الدعوة أعنى دعوة التوحيد وهنا تلقت ساحة الأمة العربية هذا الإعلان الحاسم الذى يقرر أن العقل والدين إنما هما أخوان لا انفصام بينهما وأن أى تعارض بين العقل والنقل الممثل فى الكتاب الموحى به النازل على لسان رجل عربى من نفس البيئة ليس غريبا عنها هو ضرب من السخف وهى وصاية مقيتة شاذة من بعض البشر الذين نصبوا أنفسهم مكان الله فى ثيوقراطية ليتحكموا فى رقاب الناس بلا مبرر إلا إشباع الرغبة فى تحقيق الأنانية الذاتية :

الأمر الثانى :

أن القرآن ـ أثناء نزوله على رسول الله (صلى اله عليه وسلم) ـ قرر فى أسلوب حاسم أن نشر الدين ليس أمرا سهلا وأن تقرير تلك المبادئ ليس طريقا مفروشا بالورود والزروع والمناظر الخلابة وإنما هو طريق صعب إذ أنه ما من شئ أصعب فى هذه الدنيا من إصلاح المفاهيم واقتلاع العادات من النفوس ، لهذا السبب تكفل الله بحفظ هذا الكتاب من عبث العابثين وكيد الكائدين وحقد الحاقدين ، هكذا صدر الوعد الإلهى بتنزيل الذكر وحفظه على تعاقب السنين وتتابع العصور فقال تعالى : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون "[1] .

نزول القران بلغة العرب :

نزل القرآن على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن عجيب شأنه أنه جاء على نهج اللسان العربى وبيانه أى أنه قد جاء عربيا يستخدم نفس الأغراض والأفانين التى ينطقونها على فصاحة وتفنن فى ضروب قولها وتفهم واضح لجميع أغراضها ليس بها لكنة أو اعوجاج فيها ، بل يفتخرون بها وبسعة محتوياتها .

---

(١) سورة الحجر الاية رقم ٩ .

وإذا سألنا التاريخ عن حال العرب وقت نزول القرآن عليهم لوجدنا الجواب الحاسم على ذلك التساؤل حيث يبين لنا التاريخ أن القوم قد بهتوا عند ما لم يستطيعوا أن يماثلوه أو يقاربوه أو يدانوه على الرغم من أنه جاء على نسق ما ينطقون ويعرفون ولقد جاء يستنهض هممهم ويستجمع حوافزهم البيانية يقول صاحبه : إنه رسول من عند الله وأن آية صدقه هذا الكتاب الذى معه والذى يتلوه عليهم صباح مساء ، ويفاخر صاحب الدعوة أنه هو الكتاب لا ريب وأن فيه الهدى الكامل وأنه خارج عن طوق كلام البشر ، ويصرح صاحبه بأن هذا الكتاب صوت الحق فى شأن السموات والارض ومن فيهما وهو معلم رائع لكل الحكم البالغة التى سمعت بها الأمم فى عصور تاريخها وعرض دقيق لكل الدساتير السماوية التى احتاجت إليها الأرض جيلا بعد جيل . وأنه يجمع الحقائق من أطرافها ويجسدها أمام عين الفكر فتظهر الحقيقة من خلاله وكأنها الصبح الواضح ، والفجر الصافى حين يشرق بأضوائه اللألاءة على الليل المظلم فينسخ ظلمته (١) .

ومما يثير العجب والدهشة معا ، نظمه العجيب وسياقة الفريد فمثلا نجد السورة تبدأ بموضوع محدد تعالجه فى اتساق وانتظام تجعل السامع مشدودا إليها دون أن يشغله بأحاديث خارجية قد تثير التشويش على السامع وإنما هى حيثيات ملاحظة أثناء القراءة فى تفحص اللفظ وأثناء السكون حين يخلو الإنسان إلى نفسه باحثا عن الانسجام الواقع بين اللفظ والمعنى فمن حيث النظم الفريد الملتئم المحبوك نرى صورة عجيبه تعلو فوق آفاق البلغاء ، وتسمو على مناط فنهم ، ومن حيث التصور نرى فنا عجبا يسحر اللب ويسيطر على منازع النفس وأهواء القلوب هذا بالإضافة إلى ما فى قصصه من فن باهر وما فى اتساق معانيه وائتلاف أغراضه - فى السورة الواحدة - من نظام مدهش رائع يسمو على قدرة البلغاء ويعلو على آفاقهم ، فالسورة الواحدة وحدة ونظام مؤتلف مهما كان فيها من كثرة تصريف الحديث وتلوين الخطاب سواء فى ذلك الطويلة والقصيرة. كأن السورة - فى ائتلافها وتناسق أوضاعها - بناء هندسى قد أحكم فنه وزاد إتقانه حتى صار كلا لا يتجزأ ، إذ ليس هناك فجوات أو ارتجال فى التنقل بين المعانى والأغراض .. فالآية اللاحقة تشد بعروة السابقة برباط محكم لا انفصال فيه ولا انفصام والسورة كلها بناء حى متماسك (٢)

وقد استهوى هذا الترابط وذلك التناسق بين آيات القرآن

---

(١) نظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى ص ١٠

(٢) إعجاز القرآن البيانى أ.د /حفنى محمد شرف ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وسوره باحثين كثيرين قديما وحديثا فمن القدماء فخر الدين الرازى ، وأبو بكر ابن العربى ، والبقاعى ، والسيوطى ، والباقلانى وغيرهم ومن المحدثين الإمام محمد عبده ومصطفى صادق الرافعى الذى يقول فى كتابه (إعجاز القرآن) " من أعجب ما اتفق فى هذا القرآن من وجوه إعجازه أن معانيه تجرى فى مناسبة الوضع وإحكام النظر مجرى ألفاظه على ما بيناه من أمرها ولا يعدم المفكر وجها صحيحا من القول فى ربط كل كلمة بأختها ، وكل آية بضريبتها وكل سورة بما إليها وهو علم عجيب أكثر منه الإمام فخر الرازى فى تفسيره وقال فيه (إن أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط ويقال إن أول من أظهر هذا العلم هو الشيخ (أبو بكر النيسابورى وكان غزير المادة فى الشريعة والأدب فكان يقول إذا قرىء عليه ، لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جانب هذه السورة) (١)

هذه الألفاظ وتلك المعانى هى عربية وسرها كامن فى هذه اللغة الطواعة التى تحفز ـ بما فيها من سعة العرب على القول فى المنظوم والمنثور كما ألمحنا إلى ذلك قبل قليل ، إن سر القران كامن فى عربيته ولندع الفكر يتفحص معانى هذه الآيات لندرك فى جلاء اليقين أن العربية هى سر هذا القرآن .

" وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين " (٢) " إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (٣) .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى هامش ص ٢٧٧ ط ١٠ الاستقامه

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥ .

(٣) سورة يوسف الآية رقم ٢ .

وظيفة القرآن :

أنزل الله على عبده الكتاب العربي الذي لم يجعل فيه اعوجاجا ، حاصرا وظيفته في الإنذار والتبشير أما الإنذار فلقد انبثت آياته بين تضاعيف القرآن ممسكة بالسوط تلهب به ظهور أولئك الذين انحرفوا عن قصد ومالت بهم أهواؤهم إلى البعد عن المحجة ، وذلك ملاحظ في آيات الإنذار .

" لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون " (١) "وتنذر به قوما لدا " (٢) . " تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا " (٣) . وفيما يتعلق بالتبشير نقرأ قوله تعالى " فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين" "ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا " (٤) . "ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير " (٥) .

ومنه يظهر بجلاء أن القرآن يهدف إلى هداية الناس إلى الحق وإلى طريق الصواب وتبشير المهتدي وإنذار الضال ومن ثم كان القرآن شفاء ودواء حاسما لعلل النفوس فوق إنه نور يخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الحق " وبالحق أنزلناه وبالحق نزل " (٦) .

وهو أثناء تلك المسيرة يستخدم أساليب متعددة كالتشويق والترقيق والتحذير والتنفير ، والتهويل والتعجيب ، والتبكيت والتأنيب (٧) ، وترى ذلك واضحا يلبي درجة الاشباع الوجداني المتصل اتصالا مباشرا بالنفس وفي نفس الوقت يرضي أذواق الباحثين عن مسلمات النتائج دون أن تطغى

---

(١) سورة يس الآيتان ٦ ، ٧
(٢) سورة مريم الآية ٩٧
(٣) سورة الفرقان الآية (١)
(٤) سورة الكهف الآية ٢
(٥) سورة هود الآية ٢
(٦) سورة الإسراء الآية ١٠٥
(٧) انظر النبأ العظيم أ.د / محمد عبد الله دراز ص١١٠ ط ١٩٦٩ .

إحدى الحاجتين على الأخرى في توازن يثير شغف الباحثين المهتمين بشئون هذا التنزيل على تعددها وتنوعها مما يقطع بأنه تنزيل من حكيم حميد لا يتطرق إليه الباطل حتى وإن حاصره بجنده من جميع الجهات فسوف يحكمون بأنفسهم - بعد طول المعاناه - أنهم مجهدون غير قادرين على مجرد الاقتراب حتى من إطار المعنى الذى تصوغه ألفاظ القرآن فقل لى أين ذلك البشر شاعرا كان أم أديبا أو مفكرا الذى تتساوي عنده تلك الأساليب على تنوعها واختلاف مقاصدها وهى متكافئة في تفكيرها وفي وجداناتها وجميع القوي النفسية على سواء . إنه لا مناص من الاعتراف بأن الذين نزل فيهم القرآن قد تذوقوا جوانب العظمة فيه واضطروا إلى التسليم بأنه من طاقة فوق طاقتهم وقوة فوق قوتهم وأنه خارج عن حدود ما يعرفون على الرغم من أنه من حروفهم ركبت كلماته وتتابعت جمله من بعد ذلك وسوره وآياته وعلى نسقهم في التفكير جاء تركيبه هو إذا من جملة ما يعرفون وليس غريبا عما ينطقون .

القرآن والعقل :

ولقد سلك القرآن في دعوتهم إلى هذا الدين الجديد كل وسيلة مقنعة تقوم على أسس مستقيمة ترشد إلى الطريق السوى معتمدًا في ذلك على المسلمات العقلية التى يأخذها الفكر بالتسليم وتقبلها الفطرة السليمة ويتلقفها الوجدان النقي حين تلقي إليه وأن الباحث في أساليب القرآن يدرك إدراكا لا لبس فيه أن القرآن قد حكم العقل وجعل البرهان أساس العلم ومن ثم شنع القرآن على المقلدين باعتبار أن ذلك إلغاء وتعطيل لأعظم قوة منحها الله للإنسان فينهى عن تعطيل العقل باعتبار أن ذلك طعنة في صميم منطق العلم وسلطان العقل ، على أن القرآن إذ يعطى للعقل هذه الصفة لا يجعل منه القائد الوحيد الذى له الحق في الحكم على كل الموضوعات بالصحة أو البطلان إذ لو كانت له هذه الصفة لأدى ذلك إلى قلب الأوضاع رأسا على عقب ومن ثم يقع الانحراف عن الصراط المستقيم أما قلب الأوضاع فلأن العقل - أولا وأخيرا - مخلوق لله فيجب أن نضعه في إطار حدوده التى هيئ لها ولا نعطيه تلك الهيمنة التى أعطاها له أولئك المفتونون بالعقل وشئونه وسره ومكنونه .

حتى أغرقهم ذلك فى متاهات بحار الفكر فضلوا دون أن يصلوا بعقولهم المستقلة إلى سواحل اليقين . وأما الانحراف عن الصراط المستقيم فلأن هناك أمورا تخرج ولابد عن نطاق العقل مثل نعيم الجنه وعذاب النار وغير ذلك من الأمور التى لايستقل العقل بإدراكها لأنها من مصدر أعلى منه ولابد أن يكون ذلك المصدر هو الخالق العليم بأسرار خلقه. وتلك - لعمرالله - لا سبيل إلى معرفتها بالعقل المستقل ومن ثم تضطرب القيم وتتزلزل زلزالا عنيفا وتصبح ملكا للأشخاص يصرفونها حسب أهوائهم التى تتفق مع الأمزجه وطبائع الأهواء الذاتية والميول الشخصية لابد إذن من الاعتراف بأن للعقل حدودا يجب ألا يتعداها . وإن تعداها فلابد أن يقع الخلط والاضطراب - كما ألمحنا - وإذن فإن احترام القرآن للعقل ليس بإضفاء القداسة عليه فى كل ما يقرر أو يأمر أو ينهى بل إن هناك قواعد تحكم سير هذه الأمور وهذه القواعد تتمثل فى :

١- ما وراء الطبيعة وهى العقائد الخاصة بالله - سبحانه وتعالى - وبرسله عليهم الصلاة والسلام وباليوم الآخر وبالغيب الإلهى على وجه العموم .

٢- فى مسائل الأخلاق وما ينبغى أن يكون عليه السلوك الإنسانى ليكون الشخص صالحا .

٣- فى مسائل التشريع الذى ينتظم به المجتمع وتسعد به الإنسانية جاء القرآن هاديا للعقل فى هذه المسائل بالذات ، لأن العقل إذا بحث فيها مستقلا بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع (١) .

فلو ولينا العقل قيادة هذه الأمور فإن الخلاف والتشرذم - والحال كذلك - أمر لا عاصم منه وعندئذ ترتفع الطمانينة من الأفراد والمجتمعات ويحل محلها القلق والحيرة والاضطراب وإذا اتفقنا على تحديد مجال العقل وأنه ليس ميزانا دقيقا توزن به جميع الحقائق فإن هناك موضوعات أخر يكون العقل

---

(١) الإسلام والعقل للمرحوم أ.د / عبد الحليم محمود ص١٧ ، ١٨ ط المعارف

فيها مطلق الحكم والقائد الآمر الناهي الذى له سلطان تقرير الدعاوى واستخلاص النتائج اللازمة لمدعاه ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى فى الأمور التجريبية كالطبيعة والكون وما فيهما من سماء وأرض وجبال وبحار وكواكب وأقمار وشموس ومادة وطاقة وأعماق بحار وآفاق سماء . إن كل ذلك غير محجور على العقل إذ هو القائد وليس المقود ، الحاكم وليس المحكوم بشرط أن يكون هدفه الوحيد هو خير البشرية ، فالقرآن هو كتاب العقل بهذا المعنى الذى قررناه وهو بتمامه نداء قوى لتحرير العقل من قيوده التى كبلته طويلا كالتقليد واتباع الهوى والميول والعادات وننتهى من هذا كله إلى أن القرآن يربط بين الأساس الاعتقادى والنظم الأخلاقية والتشريعية المتصلة إتصالا وثيقا بالكيان الاجتماعى ولهذا السبب نزل القرآن وفقا لمنهج ثابت الجذور واضح المعالم قوى البنيان يعتمد فى منطقه على الأساس الإعتقادى القائم على توحيد الله وإبراز أنه السلطان الوحيد الذى لا يشاركه أحد فى التشريع ومن ثم فإن تحرير الفرد من الولاء لغير الله هى سمة أساسية وهدف رئيسى للمنهج القرآنى فكانت الخطوة الأولى التى اهتم بها المنهج فى القرآن غرس عقيدة الإيمان بالله وتوحيده لانه بقدر إستقرار العقيدة فى النفس يكون انطلاقها إلى سائر الفضائل الخلقية ، ويكون استعدادها لإقامة سائر أحكام الإسلام ولهذا لم يكن غريبا أن يستمر الرسول (صلى اله عليه وسلم) ثلاثة عشر عاما فى مكة يعلم الناس التوحيد دون أن تنزل آية واحدة من آيات التشريع حتى يستخلص مشاعر النفس وملكات العقل ومحركات الجوارح فتسلم كلها لله (١) . ولو أننا تتبعنا أسلوب القرآن ومنهجه - فى إثبات العقائد المتصلة بتوحيد الله وموضوع الذات والصفات وإثبات الكمالات لذاته تعالى وتنزيهه عن المماثلة فى أى شأن من شئون الخلق - لوجدنا أمرا عجيبا سوف نشعر ونحن نقرأ آى القرآن أننا لسنا أمام أدلة معقدة تعمل فيها العقل ونجهد فيها الفكر لنستخلص نتيجة من بين معركة حربية قد شرعت فيها السيوف لنحصل على نتيجة جدلية أكثرها يدفعه الانتصار لمذهب معين والهجوم على رأى مقابل نجد ذلك فى الكلاميات المتصلة بهذا الأمر وما تفرع عليها من حديث فى الفرق بين الصفات والذات وهل الصفات عين

---

(١) اعجاز القران البيانى ص ٢٨١

الذات ؟؟ أم هي غيرها ويثور عباب البحر الكلامي وترعد سحائبة وتزبد دون أن تلوي على شيء إلا نتائج جدلية ما كان أغنانا عنها لو أننا اتبعنا منهج القرآن ·

على حين أننا واجدون في القرآن تآخيا بين الفطرة والعقل ويجب أن يكون ملحوظا أن القرآن أثناء حديثه يتجه إلى عموم المخلوقات فلا يخاطب شعبا بعينه ولا أمة بعينها ولا قومية خاصة إنما هو يعلو على النزعات الفردية والنزعات القومية فيجعل من العالم وحدة يوءلف فيها بين المختلفين ويجمع بين المتخاصمين في أسلوب يبتعد عن الجدل العقيم قاضيا بالتصالح بين العقل والفطرة وذلك ملحوظ في آيات القرآن لا يحتاج إلا أن نسترجع بعضها لندلل على ما قلناه قال تعالى (ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) (١) وقوله سبحانه : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) (٢) ·

وقوله عز وجل (أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) (٣) ·

وهكذا نلاحظ الاتساق بين معاني القرآن ومبانيه دون أن تجد عسرا في الفهم أو عقدة في اللفظ وكل ذلك على أساس من الفطرة والعقل والتفكير بهدف ترسيخ العقيدة في أعماق النفوس ، وهكذا قاد سامعيه إلى الاستجابة له والانقياد إليه حتى ولو كان المستمع من أعداء القرآن فنراه يقطع عليه سبيل

---

(١) سورة الحج الآية رقم ٧٣

(٢) سورة الغاشية الآيات (١٧ـ٢٠)

(٣) سورة النمل الآية رقم (٦٠)

المكابرة والمعاندة والتأبى على الحقائق وصياغتها فى المقدمات والنتائج التى ينتهى إليها القرآن اللهم إلا أن يكون المنكر حاطب ليل قد أغلق كل مدركاته الحسية والعقلية حتى قاده حقده وجهله وهواه إلى إنكار الحقيقة الساطعة والحجة الدامغة .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (١) .

ألست ترى معى أن مجىء القرآن على هذا النسق العجيب والتركيب المحكم والأسلوب الواضح الأبلج الذى يأتى على كل ما فى العقول البيانية من قضايا وأفكار (كأنما ركبت على مقادير العقول والقوى وآلات العلوم وأحوال العصور المغيبة) (٢) وهو فى كل ذلك يختار اللفظة التى تأخذ بحجز أختها وتمسك بزمام سابقتها ليتكون من بعد نسيج بيانى رائع يعلو على مستوى كتابات الضالعين فى لغة القوم والذين يعدون من أساطين فكرها . حقا إنه لأمر عجيب أن تستجيب هذه الألفاظ كقوالب لمعانى يراد تثبيتها كمفاهيم ثابتة على مدى الدهر لا تحول ولا تزول فياضة معطاءة تمد العقيدة بالأدلة الثابتة التى تحفظها من كيد الكائدين وحقد الحاقدين فلا عجب أن اتخذه سلفنا الصالح عقيدة وسلوكا إذ أقام الأدلة على أن للكون خالقا متصفا بما دلت عليه آثار صفة من الصفات العلمية كالعلم والقدرة - وهو سبحانه - فى ذلك كله لا يشبهه شىء من خلقه ولا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم إليه راجعون ولقد عقل الصحابة هذا الدين الذى تلقوه مباشرة عن النبى (صلى الله عليه وسلم) (وجرى العمل به حينا من الزمن بينهم بلا اختلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الهوى أو التحزب) (٣) .

ولم ينقل عن أحد منهم أنه ناقش فى تلك الصفات أو تكلم فيها بكلام يخرجها عن معنى النص .

وما كان أحد يستدل على وحدانية الله ونبوءة محمد (صلى الله عليه

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ١٨

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٨١ .

(٣) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ١٥٢ ط المنار .

وسلم) إلا بالكتاب الذى نزل على النبى الكريم.

ولا عرف أحد منهم شيئا عن طرائق المتكلمين أو الفلاسفة وكل ما كانوا يسألون عنه هو ما يتصل بالأحكام العملية من صلاة وزكاة وصيام وحج وما إلى ذلك من أمر الله ونهيه.

(ومن أمعن النظر فى السنة ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة (رضى الله عنهم) على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن معنى شىء مما وصف الرب - سبحانه - به نفسه فى القرآن الكريم وعلى لسان نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام فى الصفات ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل (١)
(فصفات الله منه وله، وهو كما وصف نفسه (لا تدركه الأبصار) بحد ولا غاية وهو يدرك الأبصار وهو عالم الغيب والشهادة وعلام الغيوب ولا يدركه وصف واصف وهو كما وصف نفسه وليس من الله شىء محدود ولا يبلغ علم قدرته أحد، غلب الأشياء كلها بعلمه وقدرته وسلطانه (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) (٢) وكان الله قبل أن يكون شىء والله هو الأول والآخر ولا يبلغ أحد حد صفاته) (٣) وكذلك يفعلون فى أحاديث النزول فهم يؤمنون بها بلا كيفية وبلا بحث فى المعنى بقصد التأويل ولا يردون منها شيئا موقنين أن ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) حق ولا يصفون الله بأكثر ما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية فصفاته منه وله على أنه لو كان لهذه الصفات الخبرية التى أخبر الله بها معنى آخر وراء نصها لبينه (صلى الله عليه وسلم) لأنه لا يجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة ولو أخره عن وقته للزم عن ذلك الكتمان والكتمان فى حقه محال ولو كان المراد بها غير معناها لبادر النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى بيانها ومن ثم يجب على المسلم إذا سمع وصفا وصف به الرب نفسه أو وصفه به رسوله (صلى الله عليه

---

(١) خطط المقريزى ص ٣٠٢ جـ٣ ط التحرير

(٢) سورة الشورى الآية رقم (١١)

(٣) موافقة صحيح المنقول الصريح المعقول لابن تيمية جـ٢ ص١٨ ط السنة المحمدية.

وسلم) امتلأ صدره تعظيما وإجلالا فيجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين ولابد للمسلم أن يكون على وعى بأن ذات البارئ وصفاته من باب واحد فكما أننا نثبت ذات الله - جل وعلا - إثبات وجود وأعيان لا إثبات كيفية فكذلك نثبت لهذه الذات المقدسة صفات إثبات ووجود لا إثبات كيفية وتحديد

وبشكل عام فقد كان الحجاج فى المسائل المتصلة بذات الله وصفاته - وهى موضوع علم التوحيد. (١) . غير واردة ولا مستساغة ولا هى كذلك موضع نقاش أو جدل بل منهى عنها من أعلام الهدى من سلفنا الصالح فهذا إمام دار الهجرة (مالك بن أنس) يقول : الكلام فى الدين أكرهه ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل) .

وقال أحمد بن حنبل (لا يفلح صاحب كلام أبدا ولا تكاد ترى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل) .

وقال ابن عبد البر : نهى السلف رحمهم الله عن الجدال فى الله وفى صفاته وأسمائه وأما الفقه فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر لانه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع إلى الاصول للحاجة إلى ذلك وليس الاعتقاد كذلك لأن الله (عز وجل) لا يوصف عند الجماعة إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو أجمعت الأمة عليه وليس كمثله شئ فيدرك بقياس أو إمعان نظر وقد نهينا عن التفكير فى الله وأمرنا بالتفكير فى خلقه الدال عليه ، وبالجملة ، فإن المسلمين فى الصدر الأول ذهبوا إلى أن النظر العقلى فى مسائل العقائد ممنوع منعا باتا باعتبار أنهم فى غنية عن هذه الاتجاهات التى تؤدى إلى الجدال الكلامى الذى يورث قسوة فى القلوب . (٢) .

---

(١) انظر كشاف اصطلاحات الفنون .
(٢) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام د / محمد على ابو ريان ٤٨ ، ٤٩ ط دار المعرفة الجامعية .

فانظر إلى ذلك النقاء العقدي الذي لا تشوبه شائبة من شوائب المتكلمين الذين أولعوا بمنطق أرسطو القائم على قضايا قد جرى فيها ترتيب معقولات على مثلها ولقد أدى بهم ذلك الولوع بالمنطق الأرسطي إلى استخلاص نتائج قلقة مضطربة غير معبرة عن الحقيقة المتفق عليها بين العقلاء بل هي حقيقة في أذهان أصحاب هذا المنحى فقط إذ ما من شك في أن الفرق كبير بين ما هو مرسوم في النفس والذهن وبين الوجود الخارجي فالأول ليس واضحا إلا عند أصحابه على حين أن الوجود الثاني ثابت معلوم لا ريب فيه فلا حاجة بنا إلى افتراض حقيقة لا تكون ثابتة في العلم ولا في الوجود (١) والمثال التالي يبين إلى أي حد أدى ذلك الأسلوب إلى حلقات متصلة من الأوهام والأغاليط وعدم واقعية المنطق الأرسطي حيث يؤدي إلى دعاوى كثيرة مقدرة في الماهية بالوجود الذهني دون الوجود العيني إذ لا سبيل إلى إظهار الوجود العيني في كثير من قضايا المنطق الصوري ومن ثم أدى ذلك إلى الوقوع في الاضطراب والتناقض.

قالت المعتزله إن القرآن كلام الله (وهو مركب من حروف مرتبة متعاقبة في الوجود، وكل كلام مركب من حروف متعاقبة في الوجود حادث، فالنتيجة التي استنتجوها أن القرآن حادث مخلوق (تقدس كلام الله تعالى) فهذا الترتيب أوصل المعتزله الى نتيجة ليست مما تقع تحت الحس، فلا سبيل للعقل إلى بحثها أو الحكم عليها، ولكن يمكن التوصل بواسطة علم المنطق نفسه إلى نتيجة تناقض هذه النتيجة، فيقال: القرآن كلام الله تعالى، وهو صفة له، وكل ما هو صفة لله سبحانه قديم، فالنتيجة: أن القرآن الكريم قديم غير مخلوق وبذلك يبرز التناقض في المنطق في قضية واحدة بل في كثير من قضاياهم الناشئة من ترتيب معقولات على مثلها" (٢).

كما يظهر عيب المتكلمين ظهورا بينا في قضية التأويل حيث يقضي منهجهم بشكل عام بتقديم العقل على النص في التفسير حتى أوجبوا تأويل

---

(١) جهد القريحة في تجريد النصيحة للسيوطي ص ٢١٥ ط السعادة
(٢) مسألة القضاء والقدر، عبد الحليم محمد قمبس، خالد عبد الرحمن العك ص ٥٦-٥٩ ط دار الكتاب العربي.

النص كي يصبح مطوعا للعقل بينما نجد منهج السلف يعتمد على الخالق الذى هو مصدر كل النصوص الشرعية من كتاب وسنة فهم يحتكمون إليهما دون تأويل أو تعطيل ولابد من خضوع المفاهيم العقلية لهما بدلا من إخضاع الشرع للعقل اجحافا وإعتسافا وبهذا يظهر بجلاء اضطراب المنهج عند المتكلمين حيث أعطوا العقل العصمة الكاملة عند بحثه لكل شيء سواء كان عقليا أم حسيا ومن هنا أوغل العقل في الجرى وراء فروض متخيلة لا أساس لها في الواقع بالإضافة إلى أنها خارجة عن نطاق مدركاته ، ومن هذا القبيل حديثهم في الصفات وهل هي عين الموصوف أم غيره أم هي شيء لا هو ولا غيره على أن الإغراق في الجرى وراء الإستنتاجات العقلية قد ادى بدوره إلى محاولتهم الدؤوب في إخضاع القرآن للعقل واضطروا إضطرارا إلى تأويل آياته حسب أنظار العقول ولو أن المتكلمين جعلوا القرآن حكما فيصلا في القضايا التي ترد على العقل لما وقعوا في مثل هذا الاضطراب ، ولهذا فليس صحيحا أن يحكم العقل في الآيات التي جاءت في القرآن إنما التحكيم للمفاهيم الثابتة المتلقاة من الشرع ويجب أن تنحصر وظيفة العقل في التماس البراهين ودفع الشبه عن النصوص الشرعية ومعنى ذلك أن العقائد الإيمانية ثابته بالنقل وميدان العقل منحصر في إلتماس الحجج التي تعضد العقائد وتدفع الشبه عنها لأن العقائد يجب ردها إلى الشرع كما أوردها سلفنا الصالح دون إعتماد على العقل في إثباتها بل يجب التسليم بأن العقائد هي التي تهيمن على العقول، ولا عكس ولقد فتحت على المسلمين أبواب القلق والحيرة والاضطراب بسبب مدخولات كثيرة جاءت من أمم غير أمتنا ومن أديان غير ديننا حيث أدخلوا علينا مفاهيم ضررها أكثر من نفعها إذ ما قيمة البحث في الأعراض والجواهر في تصحيح العقائد الإسلامية التي مصدرها الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) وهذا هو السبب في ابتعاد السلف طوال القرن الأول من الهجرة عن عجاجة الكلام التي أثارها خصوم الإسلام الذين شغلوا الناس بكلام لم تعرفه الأمة الإسلامية في سلفها ولست في حاجة إلى أن أتتبع علة ذلك فإنها أمر يعرفه من له أدنى خبرة بأعداء الإسلام وما يكنونه من حقد مستكن في الضمير ونوايا مبيتة بغية تقسيم المسلمين ومن هؤلاء الحاقدين الكائدين أبو يونس الأسوري وعبد الله بن سبأ فأما

أولهما :

فهو نصراني من أهل العراق تظاهر بالإسلام ونفث في صدر معبد الجهني ، سمومه وعلمه القول بالقدر (١) .

وأما ثانيهما :

فقد أدرك أنه لا سبيل إلى إعلان المعارضة الصريحة للإسلام لأن النتيجة حتمية الخسران ، فرأى أن يعلن إسلامه ثم يبتدع أمورا يطرحها على المسلمين ومن ثم يتضاربون وينقسمون إلى شيع وأحزاب وقد ركز هذه الأمور في إظهار التشيع لعلي (رضي الله عنه) ثم أعقب ذلك فتن كقطع الليل المظلم أدت مع حركة التاريخ إلى الانقسام والتحزب والتشرذم واضطر المسلمون إلى أن يستخدموا في الدفاع عن عقيدتهم أسلحة أجنبية عن طبيعة ديننا السهل الميسور على أننا يجب أن نعترف أن غرض المتكلمين الأساسي هو الدفاع عن العقائد الإيمانية الصحيحة المتلقاة عن صاحب الشريعة ولكن شياطين الفتن اضطروهم اضطرارا إلى أن يجعلوا المعركة لصالح جدل أكثره عقيم لا يتصل بحقيقة ديننا ومرونة قواعده الكلية . ومن ثم فإننا لسنا في حاجة إلى محاكاة اليونانيين في التعويل على العقل والمغالاة في سلطانه إلى هذه الدرجة التي وصلت إلى درجة التأليه لهذا الكائن المخلوق زاعمين أن الوجود بنوعيه الحسي منه وغير الحسي يمكن أن يخضع لسيطرة العقل عليه ولقد أدى بهم ذلك الولوع بالعقل ومكانته إلى إدخال العقائد ذاتها تحت لوائه ، ولا شك أن هذه النظرة قد جانبت الصواب إذ أن العقل لا يستطيع أن يبرهن إلا على ما يدخل تحت نطاقه، أما وهناك أمور تخرج عن حدوده فإن تلك لا يمكن له البرهنة عليها مستقلا عن الشرع وهنا يجب التعويل على الشرع في كل القضايا التي لا مجال للعقل فيها وهي الأمور التي تقع وراء الطبيعة الحسية إذ كيف يستطيع العقل أن يبرهن على الحوض والصراط والميزان وغير ذلك مما تضمنته عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر فهذه الأمور لا يمكن إثباتها بالعقل وحده لأنها خارجة عن ميدان عمله فمن الضروري التعويل فيها على النقل، ورغم ذلك فإننا نستطيع أن نقرر واثقين أن أبحاث المتكلمين ، تعد أبحاثا

---

(١) انظر الخطط للمقريزي جـ٣ ص ٣٠٢

إسلامية على أساس أن لها صلة بالأدلة الشرعية رغم أن الأسلوب في كثير من الأحيان مأخوذ من الفلسفة .

القرآن والمعجزة :

أرد في هذه النقطة على سؤال يفترضه الباحث افتراضا متطلعا إلى جواب حاسم يشفي الغلة ويرد الظمأ ويمسك بزمام عجلة الإيمان دافعا إياها إلى النتيجة المرجوة التي ثبتت على مدى التاريخ دون أن ينكرها إلا من بعين بصيرته قذا حجبها عن الرؤية حتى أصبحت محجوبة معزولة عن تذوق حقيقة القرآن ودقائقه وهذا يتطلب من الباحث أن يتحدث عن حقيقة المعجزة إذ قد جرت سنة الله في أنبيائه جميعا أن يؤيدهم بالمعجزات البينات وأن يسوق بين أيديهم من الخوارق ما يلفت الأنظار ويستهوى الأفئدة .

والمعجزة لغة : مأخوذة من العجز وهو ضد القدرة والتاء في آخرها زائدة للمبالغة في عجز المرسل إليهم وضعفهم عن معارضة أنبيائهم فيما ادعوه من إرسالهم إلى قومهم .

أما اصطلاحا : فقد عرفها (الباقلاني) بقوله (المعجزة هي أفعال الله الخارقة للعادة المطابقة لدعوى الأنبياء وتحديهم للأمم بالإتيان بمثل ذلك) (١) .

فقد أبان أن المعجزة هي من فعل الله وليست من فعل النبي وأن الله تعالى قد أمد الرسل بها تدليلا على صدقهم حيث حفظ التاريخ أن أممهم قد عجزت عن الإتيان بمثلها فيما برعوا فيه .

---

(١) الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني ص٩٢ ط بيروت

شـــروط المعجـزة :

١ـ أن تكون أمرا لله تعالى بمعنى أن تكون من متعلقات قدرته سبحانـــه دون غيره لأنها تصديق منه لرسوله فلا يصدقه بفعل غيره سواء كان الأمر قولا أو فعلا أو تركا .

٢ـ أن تكون خارقة للعادة فلو لم تكن خارقة لأمكن للكاذب ادعاء الرسالـة وخرج به السحر والشعوذة وغرائب المخترعات .

٣ـ أن تظهر على يد مدعي النبوة ليعلم أنه تصديق له فخرج به الكرامــــة والمعونة والاستدراج .

٤ـ أن تكون مقرونة بدعوى النبوة حقيقة أو حكما بأن تأخرت بزمن يسيـــر وخرج بهذا الإرهاص .

٥ـ أن تكون موافقة للمطلوب فخرج بذلك الإهانة لأنها مخالفة لمطلـــوب المدعي كما حصل لمسيلمة الكذاب فإنه عندما تفل في عين أعور لتبـــرأ عميت السليمة .

٦ـ أن لا تكون مكذبة للمدعي فلو قال معجزتي نطق هذا الجماد فنطـــق مكذبا له اعتبر تكذيبه بخلاف ما لو إذا قال معجزتي إحياء هذا الميـــت فنطق مكذبا له لأنه بعد إحيائه مختار فيما يعتقد فلا يعتبر تكذيبه ، وقد قيد بعضهم عدم اعتبار تكذيبه ، بما إذا مكث حيا زمنا .

٧ـ أن تتعذر معارضته لأنه لو أمكن المعارضة لأمكن للكاذب ادعاء النبوة .

٨ـ زاد بعضهم ألا يكون من نقض العادات كزمن طلوع الشمس من مغربهـا فالخوارق فيه ليست معجزة (١) .

---

(١) شرح المقاصد مبحث السمعيات ص١٢ وما بعدها .

وعرفها (البغدادى) بقوله (حقيقة المعجزة عند المتكلمين ظهور أمر مخالف للعادة فى دار التكليف لإظهار صدق ذى نبوة من الأنبياء مع نكول من يتحدى به عن معارضة مثله) (١) .

وعرفها (الآمدى) بأنها أمر خارق للعادة يظهره الله على يد من يدعى النبوة عند تحدى المنكرين على وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثله (٢) .

ونلاحظ أن التعريفات الثلاثة متفقة فى الأسس التى تقوم عليها المعجزة إلا أن البغدادى أضاف قيدا هو قوله فى دار التكليف وذلك معناه أن مايقع يوم القيامة من أمور خارقة للعادة لا يسمى معجزة .

---

(١) أصول الدين للبغدادى ص ١٧٠ ط بيروت

(٢) غاية المرام فى علم الكلام لسيف الدين الآمدى ص٣٣٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

إمكـــان المعجـــزة

المعجزة ممكنة ودليل إمكانها الوقوع فقد حدث بالفعل خوارق حسية جرت على يد الأنبياء السابقين فقد أيد الله موسى (عليه السلام) المرسل لبنـــى إسرائيل -- وكان عصره عصر سحر -- بفلق البحر وانقلاب العصا حية وانبجـــاس الحجر بالماء ....

وأيد عيسى عليه السلام -- وقد اشتهر زمانه بالطب -- بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . فمما لا سبيل إلى الريب فيه بعد ظهور هذه المعجزات علـــى يد الرسولين الكريمين أن يكونا مبعوثين من عند الله . لأنه لم يستطع أحـــد من سحرة القوم أو أطبائهم أن يفعل فعلا مماثلا لفعلهما ، والقوم قد جمعـــوا كيدهم وأصروا إصرارهم على اللجاج والتحدى والتعدى فما استطاعوا أن يصمدوا لآيات الله الساطعة وبراهينه القاطعة ، وغلبت حجة النبيين عليهما السلام .

ولما أرسل الله رسوله محمدا (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس كافـــة وجعله خاتم النبيين أيده بمعجزات حسية كمعجزات الرسل السابقين ، ومن ذلك إشباع العدد الكثير بالطعام القليل وحنين الجذع الذى كان يخطب عليه عنـــد مفارقته إلى المنبر وخصه بمعجزة عقلية خالدة ، هى القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وتواتر نقلها بما لا يدع مجالا للريب فيهـــا ولقائل أن يقول إن هذه المعجزات وهى حسية إنما تلزم الذين شاهدوا وقوعها على يد النبى فى ذلك العصر، أما غيرهم فلا سبيل إلى الاقناع بوقوعها نظـــرا لانتفاء المشاهدة وهى أقوى الأدلة فى هذا الشان .

فالجواب أن القرآن قد ذكر بعض هذه الخوارق منسوبة فى الفعل والوقوع إلى الأنبياء السابقين ولما كان القرآن قد نقل إلينا بالتواتر فأصبح النقل حجـــة يفيد اليقين وعليه تكون المشاهدة كافية فى اليقين للمعاصرين لهذا النبـــى أو

ذاك والتواتر كاف في الإخبار وهذا بدوره يفيد اليقين للغائبين عن عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) .(١)

الفرق بين المعجزة والكرامة :

ولابد أن طبيعة البحث في المعجزة يمت بصلة قوة إلى الحديث عن الكرامة فأراني مضطرا إلى الحديث عنها لرفع ذلك الاشتباه الذى قد يتبادر إلى بعض الأذهان فأقرر أن الكرامة هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح غير مدعي النبوة وهي جائزة عند أهل السنة،وأنكرها المعتزلة خوفا من الاشتباه بالمعجزة . والدليل على ذلك عند أهل السنة نقلي وعقلي . أما النقلي فهو ما أخبر به الله عن صاحب سليمان أنه أتى بعرش بلقيس من مسافة بعيدة في زمان قريب كما قال الله إخبارا عنه (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي) (٢) وكذا سماع سارية وهو بنهاوند قول عمر (رضى الله عنه) وهو بالمدينة يا سارية الجبل وبينهما أكثر من خمسمائة فرسخ . وجريان النيل بكتاب عمر (رضى الله عنه) كذا ما نقل من كرامات التابعين وصالحي هذه الأمة بلغ حدا لو جمعت آحادها لبلغت حد التواتر في جواز الكرامة وأما العقلي فإنها فعل الله تعالى على خلاف مجري العادة ليعرف العبد ثمرة الطاعة وتزداد بصيرته بصحة دينه (٣) . ذلك دليل أهل السنه الذين جوزوا وقوع الكرامة . وأما منكرو الوقوع وهم المعتزلة فحجتهم في ذلك أنهم يخافون وقوع الاشتباه بين المعجزة والكرامة فلا يكون بينهما فرق فيحدث الالتباس لأن كليهما أمر خارق للعادة والجواب على هذه الشبهة أن الفرق بين المعجزة والكرامة أمر ظاهر . فالأولى مقرونة بدعوى النبوة والثانية

---

(١) غاية المرام في علم الكلام للآمدى ص ٣٣٢
- شرح تعليقات على العقائد النسفية للشيخ / صالح شرف (رحمه الله) ص ٢٠٣ .

(٢) سورة النمل الاية رقم ٤٠

(٣) البداية من الكفاية في الهداية في أصول الدين للإمام / نور الدين الصابوني ص٩٨ .

ليست كذلك لأنها متمثلة في اتباع الولي للنبي بمعنى ظهور اقتداء الولي بالنبي إقتداء كاملا لا يشوبه اضطراب كما يظهر الفرق في الطريقة التي يقع بها الخارق فهو في المعجزة ـ يستخدم أسلوب التحدي فيما برع فيه قومه واشتهروا به كما أشرنا إلى ذلك في المعجزات الحسية بينما يحرص الولي على كتمان سره وإن وقع الخارق على يد الولي فلا يحفل به ويعتبره فتحا من الله ودليل محبة وقرب ويحدد التاج السبكي في طبقات الشافعية الفروق بين المعجزة والكرامه بقوله (يقرر المنكرون للكرامة أنه لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة والجواب منع الاشتباه بعد قرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهي إنما تقترن بكمال اتباع الولي للنبي وأيضا فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار والكرامه مبناها على الخفاء ولا تظهر الا على الندرة والخصوص لا على الكثرة والعموم وأيضا فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات) والكرامه تختص ببعضها (١) .

توافر شروط المعجزة في القرآن :

إن القارئ للقرآن الكريم يدرك إدراكا لا خفاء معه أن القرآن قد توافرت فيه شروط المعجزة التي أشرنا إليها قبل قليل فلقد بعث الله رسوله في قوم سما فيهم شأن البيان وكثر فيهم الفصحاء والبلغاء وتفننوا في ضروب القول شعرا ونثرا وقالوا في القصيد والشعر والأسجاع والمنثور وأفاضوا في كل شأن من شئون الحياة واتسعت عندهم أغراض المنظوم والمنثور حتى شملت أغراضا كثيرة متنوعه يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم وما أمر حسان والخنساء ببعيد وهل يغفل باحث أمر أسواق العرب (عكاظ) (مجنة) (ذي المجاز) والمعلقات السبع التي اعتبروها عيون شعرهم تمد الادب وتغذيه وترافده بالغزير من القول والصور المتنوعة من بيئتهم الصافية التي ليس فيها أثر لكدورة المادة .هذا يدل على أن البيان قد بلغ أوج عظمته وأن الجزيرة العربية كانت آنذاك في شبابها الأدبي الذي ملأت به الدنيا تيها وإعجابا وفي وسط هذا العلو الأدبي والتفنن اللفظي وفي مهد الأدباء البلغاء منهم والفصحاء أصحاب تلك الصناعة وأرباب تلك البضاعة تتفتق الأرض عن رجل ما عرف التاريخ

---

(١) انظر الوحي المحمدي للشيخ / محمد رشيد رضا ص ١٨٥ ط المنار

أنه كان يوما ما شاعرا أو ناثرا أو حتى خطيب مجامع أو خبير مقالات يدعى بين لحظة وأخرى أنه رسول الله ثم هو لا يأتي بدليل غريب عن البيئة إنما كان دليله على صدق دعواه هو كلام من نوع ما يقولون وتراكيب من جنس ما ينثرون وجمل لا تفترق في التركيب ولا في الحروف عن أجناس جملهم وحروفهم ومن عجيب أمره وأمرهم أنه قد استخدم في إثبات عجزهم عن معارضته أساليب تثير الحرب وتبعث على التجمع والتعاون في هذا الصدد رغبة في الانتصار لقضيتهم لا سيما وأن المتحدى يبغى هدم عقائدهم الفكرية وعاداتهم الاجتماعية التي ألفوها ، بالإضافة إلى أنه يهدف إلى تحديد مسار جديد لحركة التاريخ مقطوع الصلة بالماضي من نقطة بداية هي حقيقة جديدة تبدأ من تحت راية التوحيد : هذا كله كاف في استثارة الحفائظ والهمم وهم الذين لا تنقصهم الرغبة في الانقضاض عليه ثم قتله لو أنهم استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

فما لهم لا ينطقون وعن الحجة ناكبون وإلى غير الصراط السوى هم سائرون إن ذلك لأمر يثير العجب ، وينضاف إلى ذلك أن الوعاء الفكرى الذى يصب فيه المتحدى عقائده وأفكاره هو كتاب عربي صاحبه يشهد على نفسه من ناحية المبدأ أنه لا يملك من أمر هذا الكتاب شيئا شأنه فيه شأن مستمعيه وقصاراه أنه أمر فأطاع وأنه كلف بالنقل فنقله لا يملك إلا إيصال الكلمة كسبيل لنشر المعاني وإذا بمبانيه ومعانيه تلتقيان في حس السامع كأنهما توأم يشبان معا ويتعاونان في سبيل إنشاء مجتمع عقائدى ثابت الأركان وطيد البنيان على حين أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما طلب منهم المساعدة في تشييد هذا البنيان بل كل ما طلب أن يؤمنوا بهذه الدعوى الجديدة على أساس من هذا الكتاب الذى معه والذى بلغ قمة الفصاحة بدليل أنهم لم يجيبوه إلى طلبه الذى تحداهم إليه وهم فرسان الكلمة ، والقول مألوفهم لا يبذلون فيه جهدا ولا عرقا فما لهم لا يجيبون ولا يقبلون هذا التحدى وكل الدوافع إلى معارضته بكلام مثل كلامه قائمة لتكون لهم بتلك المعارضة حجة على الدهر دائمة ولكنهم سلكوا في المعارضة سبيلا غير ما طلب وطريقا لم يندبهم إليها فتركوا أنفسهم بهذا السلوك هزأة للأجيال على تتابعها وتعاقبها .

وهكذا أدرك القرشيون بصفة خاصة والعرب بعامة ما لهذا الأسلوب القرآني من إعجاز لا يملك أي عربي يجد حسن لغته وذوقها الأصيل سليقة وطبعا ، إلا أن يسلم بأنه ليس من قول البشر (١) .

بل هو من كلام الله القديم أنزله على قلب نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى ادعى النبوة ودلل على صدقه بالكتاب الذى طرحه على ساحة العرب والعجم على موائد البحث والمناقشة طالبا منهم الإتيان بمثله وهم على الحال الذى أوضحت من قدرة على الكلمة البليغة والجمل الرصينه ولكنهم أبلسوا فما نبسوا وأحجموا عن قبول التحدى وما ذاك الا لأن هذا الكتاب العزيز من قدرة فوق قدرتهم وطاقة فوق طاقتهم وقد جاء خارقا للعادة .

(قد انفرد الله تعالى بالقدرة عليه ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه كما يستحيل عجزهم عن فعل الأجسام) (٢) فالعباد لا يقدرون على ذلك وإن لم يصح وصفهم بأنهم عاجزون على الحقيقة عن ذلك فليس العجز هنا عيبا فى العباد وإنما هو بيان لمقدرتهم وأن قدرتهم ذات نطاق محدود ومن ثم لا يجوز أن تتعدى القدرة البشرية حدودها وفى هذا النطاق يتفاوت الناس ما بين الإجادة والتوسط و العجز إذ لو صح أن يقدر فصحاؤهم عليه لما كان القرآن دالا على صدق النبى (صلى الله عليه وسلم) باعتبار أن دلالته على المعجزة لا وجود لها لكن الله خرق تلك العادة لنبيه بتعذر فعل ذلك منهم وأن لا يقدروا عليه ، ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله أو عرضوا عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم ما يعارضه ، فلما لم يشتغلوا بذلك علم أنهم فطنوا إلى خروج ذلك عن أوزان كلامهم وأساليب نظمهم وزالت أطماعهم عنه (٣) على أساس أنه خارج - بقدرة الله - عن حدود صنعتهم التى برعوا فيها .

---

(١) الإعجاز البيانى للقران د / عائشة عبد الرحمن ص٢٧ ط المعارف
(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص٨٤ ط مصطفى البابى الحلبى سنه ١٩٧٨
(٣) المصدر السابق ص٨٤ .

مسلك الرسول فى التحدى بالقرآن :

بعد هذا الذى تمهد من بيان أن القرآن قد اجتمعت فيه شروط المعجزة الدالة على صدق الرسالة أرانى مضطرا للوقوف قليلا عند مسلك الرسول فى التحدى بالقرآن فقد سلك رسولنا الكريم (صلى الله علية وسلم) فى هذا التحدى طرقا مختلفة فطالبهم أول الأمر بالإتيان بحديث مثله إن كان قد افتراه (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)(١) ثم أرخى لهم الحبل لما بان عجزهم عن الإتيان بمثله وطالبهم بعشر سور مثله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (٢) فلم يستطيعوا فما كان منه الا أن نزل نزولا بينا سقطت معه الأعذار وتهاوت فى أثره الحجج فطالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة مثله .

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (٣) فعجزوا فلم يكن هناك بد من النزول فى التحدى الى أقل مستوى يقصد من ورائه التهكم بهم والتعجب من حالهم وعنادهم فلم يطالبهم بالإتيان بمثله ولا بعشر سور مثله ولا بسورة واحدة مثله بل طالبهم بما هو أقل من ذلك فطالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (٤) فعجزوا أيضا وقد أباح لهم فى كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا من أحبائهم وأقربائهم ومن استطاعوا أن يجندوه لهذا العمل من مخلوقات الله ثم طرح حكمه النافذ على مسامع الناس بتسجيل العجز الدائم للمجتمعات جميعا الذين حضروا عصر الرسالة منهم وبلغوا القمة فى الفصاحة والذين انحدروا من أصلابهم مهما اختلفت شعوبهم وتباعدت مسالكهم

---

(١) سورة الطور الآيتان ٣٣-٣٤
(٢) سورة هود الآية ١٣
(٣) سورة يونس الآية ٣٨
(٤) سورة البقرة الآية ٢٣

وطرقهم فقال عز شأنه (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (١) وقد يتبادر إلى الذهن سؤال كيف يتحدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالقرآن أمما لا تعرف اللسان العربي وليس لها بتصريفاته خبرة فإن كانوا لا يعرفون ذلك فهم ليسوا محجوجين بالقرآن وأجاب القاضي الباقلاني على هذا التساؤل بقوله (إنه لا يتهيأ لمن يتكلم بغير العربية كالعجم أن يعرفوا إعجاز القرآن لان الأعجمي لا يعلم إعجاز القرآن إلا إذا علم عجز أهل اللسان العربي عن الإتيان بمثله وإذا عجز أولئك فهؤلاء أشد عجزا فإذا عرف عجز أهل الصنعة حلوا محلهم في توجيه الحجة عليهم (٢) وإلى مثل هذا يذهب القاضي عبد الجبار فيقول (فأما قول من يقول : إن العجم إذا لم يصح فيهم تأتى مثل هذا القرآن ولا تعذره ، فلا ينكشف ذلك فيهم أصلا ، فكيف يصح التحدى فيهم والاحتجاج بالقرآن عليهم؟ فبعيد ، وذلك لأنا لا نقول إنه (صلى الله عليه وسلم) تحداهم وإنما تحدى أهل هذا الشان ، وجعل تعذر المعارضة عليهم دلالة على نبوته ، ودلالة لسائر الناس على أن القرآن خارج عن العادة فهم يعلمون أن تعذر المعارضة على أهل هذا اللسان هو الدلالة فإذا أمكنهم معرفة ذلك فحالهم في أن الحجة قائمة عليهم ، كحالهم لو عرفوا تعذر المعارضة من قبلهم لو كانوا أهل الفصاحة) (٣) وقد يثور هنا سؤال خلاصته هل الإعجاز القرآني مخصوص بعجز العصر الأول دون غيره ؟ والجواب أن هذا سؤال لا ينبغي أن يداخل أفكار الباحثين أو يزاحمهم ذلك أن هذه القضية محسومة منذ نشأتها لأن العصر الأول عصر وصلت فيه البلاغة حد الغاية فإذا عجز بلغاء هذا العصر وهم على تلك الحال التي وصفنا فغيرهم من باب أولى أعجز ، وبالتالي فإن قضية التحدى تبلغ هي الأخرى قمة المنطق بل هي منسجمة ومتناسقة مع طبيعة المرسل إليهم أولئك الذين بعث فيهم محمد (صلى الله عليه وسلم) فالمعجزة إذاً هي منسحبة على العصور اللاحقة وهي على الأيام باقية وعلى الدهور والأزمان ثابتة ولقد تولى الجرجاني تفصيل هذه القضية بأسلوب يغنى عن التدخل فيه بالشرح أو بالتعليق أو بالإضافة فقال في مقدمة رسالته الشافية (معلوم

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨٨)

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٦ .

(٣) المغني للقاضي عبد الجبار ج١٦ ص٢٩٥ـ٢٩٧ ط ١ الهيئة العامة المصرية للكتاب.

أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل ، وأن للتفاضل فيه غايات ينأي بعضها عن بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضا ، وأن علم ذلك علم يخص أهله وأن الأصل والقدوة فيه العرب ـ في لسانهم ـ ومن عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يدعي للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي (صلى الله عليه وسلم) الذى نزل فيه الوحي وكان فيه التحدى ، أنهم زادوا على أولئك الأولين او كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له ..

والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى أو ينكره إلا جاهل أو معاند ، وإذا ثبت انهم الأصل والقدوة ، فبنا أن ننظر من دلائل أحوالهم وأقوالهم حين تلى عليهم القرآن وتحدوا إليه وملئت مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله ومن التقريع بالعجز عنه وبت الحكم بأنهم لايستطيعونه ولا يقدرون عليه) (١) . على أنه يجب أن نلاحظ أن هذا التحدى قد صوب نحو أمة البيان التي بلغت في الشأو البعيد فبلغت المعجزة موقعها إذ اختلطت بشغاف القلوب يقول الجاحظ في تأصيل بلاغة الأمة التي وجه اليها التحدى (وكذلك دهر محمد (صلى الله عليه وسلم) كان أغلب الأمور عليهم وأحسنها عندهم وأجلها في صدورهم حسن البيان) .

ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به ، فحين إستحكمت لغتهم وشاعت البلاغة فيهم ، وكثر شعراؤهم ، وفاق الناس خطبا ؤهم بعثه الله (عز وجل) فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه ، فلم يزل يقرعهم بعجزهم وينقصهم على نقصهم حتى تبين لضعفائهم وعوامهم كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من اعجب ما أتاه الله مع سائر ما جاء به من الآيات وضروب البرهانات) (٢) . ويظل القرآن قمة لا يطاولها البشر مجتمعين أو متفرقين سواء كانوا في عصر الرسالة الذين اختصوا بالتحدى أو كانوا من العصور اللاحقة وها قد مضت العصور وتتابعت القرون وكثر أعداء هذا الدين وجندوا له الجند المدججين بالسلاح وحاصروه ولكنهم فشلوا في غزوهم العسكرى وزاد أوار الحقد اشتعالا في قلوبهم فتفننوا في محاولة اختراق الصف الإسلامي بغزوه فكريا وعقائديا وغير ذلك من تلبيسات الشياطين

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١١٧ ط المعارف (سلسلة ذخائر العرب .

(٢) حجج النبوة ـ ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٤٦ نشرها السندوبي ط ١٩٣٣ .

على أفكارهم والمحاولات المستمرة فيما عرف اصطلاحا بالغزو الفكرى أو ما يسمى بالاستشراق والتبشير ولكن كل هذه المحاولات قد باءت بالفشل وبقى القرآن عاليا شامخا قد استوى أمامه أطراف العصور - أولها وآخرها - فى العجز على حد سواء .

وجوه إعجاز القرآن :

سنحاول فى السطور القليلة القادمة تتبع حركة التاريخ لنحاول أن نلم فى إجمال بنشأة الكتابات فى الإعجاز وتطورها . وغير خاف أن القرن الثالث الهجرى وما تلاه من قرون شهد احتكاكات الثقافات التى ترجمت من غير العربية إليها ومن ثم كان جدال الفرق وتصارعهم وأثناء تلك المناقشات كان الحديث عن مسائل كلامية كثيرة وذلك يعنى أن مسألة الإعجاز قد عولجت ضمن معالجات مسائل الكلام ون أمثله ذلك ما جاء فى تأويل مشكل القرآن (لابن قتيبه) ومقالات الإسلاميين (لأبى الحسن الأشعرى) وحجج النبوة (للجاحظ) ثم تطورت هذه المسألة فى النقاش إلى أن بحثت بحثا مستقلا كما نراه فى كتاب (إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه) (للواسطى) ت ٣٠٦هـ ثم جاء القرن الرابع الهجرى فوجد بين يديه تراثا فكريا ظن أصحابه أنهم بلغوا فيه الشأو البعيد بحيث لم يلحق بهم أحد فبدأ علماء هذا القرن من حيث انتهى أولئك وساروا فى طريق لاحب وقد ظهرت مؤلفات الأعلام الذين أثبتوا أن إعجاز القرآن قضية تظل مطروحة على الدنيا يتوارثها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل وكل يدلى فيا بدلو ليبين معنى خفى على البشر أو يثبت حسن الموقع للفظ أو يقارن ويوازن بين لفظتين أو أكثر منتهيا إلى حسن التعبير القرآنى .

وتتتابع العصور وتتوالى السنون والقرآن هو القرآن ما زال غضا طريا فى أحسن ألفاظه وبديع نظمه ومن أولئك الأعلام (الرمانى) وفى كتابه (النكت فى إعجاز القرآن) (والخطابى) فى كتابه (بيان إعجاز القرآن) (والباقلانى) فى كتابة (إعجاز القرآن) والقاضى (عبد الجبار) فى كتابة (المغنى) وغيرهم :

ونحب أن نلفت النظر فى بداية حديثنا عن وجوه إعجاز القرآن إلى أننا لن نتحدث عن كل ما قيل إنما سنعمد إلى الإجمال دون التفصيل لأنى لوتتبعت

كل ما قيل لذهبت مذهب ابن سراقة الذي يرى أن في القرآن آلاف المعجزات .

وإذا كان الأديب الرافعي قد تهكم على الرجل في أسلوب ساخر فقال على أن كتابه لو كان مما ينفع لمكث في الأرض فإن الرافعي - غفر الله له هذا التهكم - لم يفطن إلى أن مقياسه غير صحيح فكثير من الكتب التي تنفع قد ضاعت بعوامل مختلفة لا دخل للكاتبين فيها ، غاية ما نريد أن نقول أنه قد أدت كتابة السابقين إلى تجوهر نظريات الإعجاز وأصبحت ذات أصول وقواعد وسنذكر بعض هذه النظريات على سبيل المثال لا الحصر .

رأى الرماني في الإعجاز :

يذكر (الرماني) أن (وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات ، ترك المعارضة مع توفر الدواعي ، وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة) (١) ويخصص جزءا كبيرا من كتابه للحديث عن بلاغة القرآن .

رأى الخطابي في الإعجاز :

وكذلك ينحو (الخطابي) هذا المنحنى البلاغي (وإن اختلف عن الرماني في الطريقة التي عرض بها كتابه فيقسم الكلام إلى ثلاث طبقات أعلاها البليغ الرصين وأوسطها الفصيح الغريب السهل وأدناها الجائز الطلق الرسل ، ويقول إن بلاغة القرآن قد أخذت من كل طبقة بنصيب (٢) ثم يستمر في عرضه للأسلوب القرآني إلى أن يصل إلى نقطة محددة تتضح بها نظريته في الإعجاز فيمهد لها بأن يذكر رأيه في تركيب الكلام من حيث النظم ، وصلة الألفاظ بعضها ببعض في العبارة ويقسم الكلام على هذا الاعتبار إلى ثلاثة اقسام :

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق د /محمد خلف الله ، د /محمد زغلول سلام ص ٧٥ ط المعارف .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦

١ـ لفظ حامل
٢ـ معنى قائم به
٣ـ رباط لهما ناظم (١)

وينتهى الى أن القرآن قد جمع بين هذه الأمور الثلاثة فى أحسن صورة وأبدع تأليف فيقول (إن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف متضمنا أصح المعانى) (٢) وفى نهاية بحثه فى إعجاز القرآن يذكر (الخطابى) أن هناك وجها من وجوه الاعجاز ذهب عنه الناس إلا القليل وهو صنيع القرآن بالقلوب والأثر النفسى الذى يحسه قارئه وسامعه ، وفى ذلك يقول (فى إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحاد منهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة فى أخرى ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب) (٣) وفى الحق أن (الخطابى) قد جاء بنظرية فى الإعجاز احتلب فيه فوائد القرآن واجتلى فرائده ولم يسر على منوال من سبقوه فى هذا الصدد .

رأى الباقلانى فى إعجاز القرآن :

تقوم نظرية (الباقلانى) فى الإعجاز على استخدام منهج عقلي دقيق فى دراسة فنون البلاغة المختلفة التراكيب والتأليف عند خبراء صنعة البيان ، ثم مقارنتها بالبيان القرآنى ، ولا غرابة فى ذلك فالقرآن ينتمى من حيث الأبنية والمعانى إلى جنس الكلام العربى ومن ثم فان هذه المقارنة بين الكلامين أمر ليس متكلفا ولا مصنوعا بالنظر إلى مايهدف إليه من نتائج ولكى تأخذ هذه الفكرة موقعها فى النفوس نراه يعرض نماذج متعددة من الشعر والنثر

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٧
(٢ : ٣) نفس المصدر ص ٧٠

الذى انعقد إجماع علماء هذا الفن على أن أصحابه قد بلغوا الشأو البعيد فى البلاغة والفصاحة فيعمد إلى الموازنة بين ما جاء من فنون التعبير والتصرف فى القول ، ونظم الكلام فيها وما جاء شبيها أو مقاربا لها فى القرآن ، منتهيا إلى علو القرآن دائما ومن أهم ما واجهه هنا الانتقال من غرض إلى اخر ، والتصرف فى ذلك الانتقال ليبين روعة القرآن فيه وتهافت كلام البشر شعرا ونثرا . (١)

تأصيل النظرية :

ولقد تأصلت نظريته فى الإعجاز فى كتابه (التمهيد) وتتلخص تلك النظرية فى النقاط التالية :

أ ـ يثبت أولا صحة ما وصل إلينا بالتواتر والنقل الصحيح للقرآن الكريم وأنه دال على نبوة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ومعجزته الخالدة التى بنى الله (عز وجل) أمر رسالته عليها .

ب ـ أن التحدى الذى ورد فى القرآن ـ بصوره المتعددة التى تبعث على القول والمناقشة فيه دون أن يقوم العرب بمعارضته ـ يقطع بأنه من عند الله

جـ ـ ينتهى من المقدمات إلى نتيجة محددة هى خلاصة ما إنتهى إليه فى الإعجاز وهى خروج نظم القرآن عن سائر كلام العرب ونظمهم وتأليفهم وتراكيبهم ويحتج (الباقلانى) على ذلك بقوله (إن قدر ما يقتضيه التقدم والحذق فى الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله ، ولا يعجز أهل الصناعة ولا المتقدمون فيها عنه ، مع التحدى والتقريع ، بالعجز والقصور لأن العادة جارية بجمع الدواعى والهمم على بلوغ منزلة الحاذق المتقدم فى الصناعة ، وما أتى به النبى (صلى الله عليه وسلم) من القرآن قد خرج عن حد ما يكتسب بالحذق (٢) .

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى د /محمد زغلول سلام ص٢٨٨ ط المعارف

(٢) التمهيد للباقلانى ص ١١٤ وما بعدها ط مصر سنه ١٩٤٧ نشره أبوريده

وجـــوه إعجـاز القـــرآن

بعد أن بينا آراء السابقين من بعض علماء الدراسات القرانية نعـــود فنفصل ما أجملناه تفصيلا يكشف اللثام عن ذلك الإجمال .

الوجه الأول في إعجـاز القرآن :

قال أصحابه إن الإعجاز في القرآن جاء من جهة نظمه وتأليفـــه وتراتيبه وتراكيبه لأنه قد تحقق فيه أمور ثلاثة اللفظ الجيد ، المعنى الصحيـح الربط بين الألفاظ والمعاني وقد توفرت في القرآن هذه الأركان ومن ثـــم فإن الوجه الذي يمكن أن يتحدى به الرسول (صلى الله عليه وسلم)هـــو إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه وإن الجدال في هذا لا ينشأ الا عن جهالـة لا تميز ، أو غرض يلبس الحق بالباطل والنتيجة أن إعجاز القرآن قائم علـــى أن الله تعالى بنى القرآن على نظام لم تجر العادة بمثله فنظم القرآن ليـس من جنس كلام الناس الذي يتفاوت ويختلف ولكنه يتصرف من الوجوه المختلفـــة (على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيـــه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا) [(١)] فهـو مع (عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف اليـــه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ ، واحتجاج وحكم وأحكـــام وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ... [(٢)]

وكل هذه المعاني والأغراض قد صيغت في ألفاظ سلسة قد يســـرت من قبل الله لتكون أوقع في حس السمع وأعمق في الوصول إلى النفس وفـــي نفس الوقت تؤدي المعنى أداء كاملا بحيث لو أريد ان يستبدل بلفظة منـــه لفظة اخرى ثم (أدير لسان العرب على أحسن منها لم توجد تلك اللفظة)

---

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية الكويت المجلد الثامن والعشـرون الباقلاني ومعلقة امرئ القيس مقال د / سليمان الشطي ص ٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق .

وما أدت الكلمه البديلة المعنى الذى أدته لفظة القران . والأمثلة التى يمكن بها التدليل على هذا التأليف اللفظى المقترن بالمعانى الرحبة الفسيحة أكثر من أن تحصى لكننا نورد بعضها على سبيل المثال إذ أن محاولة الحصر لا طاقة للأجيال – مجتمعة – بها. أنظر إلى دقته فى اختيار اللفظ وهو يتحدث عن المشركين فيصفهم بأنهم أصحاب النار لكنه فى سورة (ص) وهو يحكى ندم المشركين على ما فات من أمرهم فى الدنيا قائلين (مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار . اتخذناهم سخريا ام زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) (١) .

فقال أهل النار ولم يقل (أصحاب النار) لما تدل عليه كلمة أهل من الإقامة فى النار والسكنى بها ومما يبرز دقة القرآن فى اختيار ألفاظه ، تلك الآية التى وردت فى سورة هود قوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) (٢) .

فقد صور الله المعنى تصويراً حسيا بحيث يتمثل القارئ والسامع المشهد العجيب والمنظر المثير كما لو كان يراه رأى العين .

ولقد استخدم لذلك ألفاظا لا يحسن – فى موقعها – غيرها ، فاستخدم لفظة (ابلعى) عند مخاطبته للأرض أن تبتلع الماء دون كلمة امتصى لأن المراد أن تبتلع الأرض ماءها بسرعة ولفظة امتصى لا تؤدى هذا المعنى ولكنها تدل على امتصاص الماء فى بطء فكانت كلمة ابلعى هى الكلمه المناسبة للمعنى المراد وأضاف الماء إلى الأرض حين أمرها بابتلاعه مما يوحي بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها .

---

(١) سورة ص الآيات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

(٢) سورة هود الآية ٤٤

وانظر إلى كلمه أقلعى وقد شدت فى موقعها أزر أختها فى إبراز المعنى وتصويره تصويرا يبدو للناظر ـ رغم تباعد ما بين عصر السامعين للقرآن والتالين له وبين عصر قوم نوح ـ كأنه مشاهد محسوس ثم أصبح الكون ساكنا كأن لم يكن هناك عواصف ولا أمطار ولا أمواج وذلك ما يثيره لفظ استوت على الجودى من الهدء والاستقرار . ولما لثبات الحقائق والمفاهيم من أهمية طلب القرآن من البلغاء والفصحاء ألا يستخدموا اللفظة إلا فى موقعها الأشكل بها كى لا تضطرب الحقائق ومن ذلك قول الأعراب للنبى (صلى الله عليه وسلم) جئناك مؤمنين فأمر الله نبيه أن يطلب منهم الدقة فى التعبير فيستخدموا لفظة أسلمنا دون آمنا وذلك لأن الإيمان معنى باطنى خفى لا اطلاع لأحد عليه بخلاف الإسلام الذى هو الامتثال الظاهرى وفرق كبير بين المعنيين ، لذلك أمروا بالتحرى فى إختيار الألفاظ وقد يحتاج المرء إلى تفكير عميق ليدرك السر فى إيثار كلمة على أخرى ولكنه بعد أن يجمع فكره ويستنهض همته ينتهى إلى علو كعب التعبير القرآنى .

هذا بالضبط ما أعجزهم عن محاكاته فأحسوا بالهزيمة فى جميع مراحل التحدى فقد (أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة برهان وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه كله ... ، فلم يجدوا فى جميعه كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى غيرها أصلح هناك أو أشبه او أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقا فأبهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع فى نفس بليغ منهم ـ ولو حك بيافوخه السماء ، موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول وخلدت القروم فلم تملك أن تصول) (١)

---

(١) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجانى ص ٣٢ ط المنار .

ويستفاد من هذا أنه كان هناك كتابات تمهيدية سبقت (الباقلاني) وإذا كان من المسلمات أن العلم بناء متكامل مهد فيه السابق للاحق فإننا لا نستطيع أن ننكر أن (الباقلاني) قد استفاد كثيرا من الدراسات السابقة عليه إلا أن له ميـزات في هذا الشأن جعلته يمتاز على الذين سبقوه بصفات أهمها أنه كان مفكرا عقديا عالج الموضوع من زاوية عقدية باعتبار أن القرآن هو وعاء صحيح المصدر لعقيـدة التوحيد وما يتبعها من الحديث عن صفات الله التى لا تدرك تفصيلا بطاقـــة العقل البشرى مستقلا عن النص الشرعي المنتمي من حيث الشكل والموضوع إلـى مصدر يستعصى على الإدراك الحسي فلا يدرك بحاسة أيا كانت طبيعتها إذ ليس كمثله شيء ومن ثم أعمل (الباقلاني) كل مدركاته الحسية والعقلية لإثبات أن القرآن معجز فى نظمه وتأليفه ومن ثم وجه (الباقلاني) كل جهده وطاقته إلى القضيـــة الكبرى التى انعكست على المشتغلين بالدراسات القرانية على كثرتهم وتعدد زوايا بحوثهم ألا وهى إعجاز القرآن فعكف على القرآن كما عكفوا وبذل كمـا بذلوا إلا أن طبيعة بحوثه كانت من زاوية عقدية أراد لها ان تستجلى حقائـق القرآن وأسراره ودقائقه ورقائقه وتميزت نظرته إلى الإعجاز بنظرة جديدة قائمـة على أن إعجاز القرآن هو فى نصه الذى بين أيدينا من أوله إلى آخره ولهذا السبب فإنه لا يعتبر النواحي الأخرى وجوها للإعجاز فلقد أغنته نظرته تلـك عن التحدث عن الصرفة كوجه من وجوه الإعجاز انفرد بها (النظام) من المعتزلة وقد اكتفى الباقلاني بالنظرة إلى البناء اللغوى الذى هو ميزة للقرآن وانتهى إلـى أن الإعجاز كامن فى تراكيبه وأبنيته البليغة وهذا - فى رأى الباقلاني - هو الوجه المعول عليه إذ إن القرآن فى صورته المتكاملة قد اجتمعت فيه شتى أنـواع الأساليب العربية البليغة بما تحمل من خصائص ذات قدرة على أن تنقلـك من معنى إلى معنى دون أن تحس بفجاءة الانتقال أو بوسائل العجـز البشرى التى تربط بين الكلامين المختلفين فى الموضوع مثل (تبينا مـن السابق أو أما بعد) وما إلى ذلك مما يعرفه المشتغلون بفن الكتابـة والكلام.

والذى يستبينه الباحث من نظرية إعجاز القرآن عند الباقلاني أن نقطة الارتكاز عنده إنما تقوم على أن الإعجاز القرآني شيء آخر غير بلاغة البشـر

وأنه من الكلام المعجز الذى لا يتوصل إليه ، وهو القرآن (وأنه لا يتفاوت ولا يتباين ، بينما كلام الفصحاء يتفاوت ، يعلو ويسفل ، يتناقض ويتلاءم وكل هذه عيوب مدركة تحدث عنها نقاد الشعر فى نقضهم ومن ثم فهو يشير إلى بديهة من البديهات وهى أن الإنسان مهما بلغ شأوه ، عاجز مقر ، فالنقص ، وعدم الكمال سمة بشرية ، وهى لا تضيره ، ولا يعتبر عاجزا ما دامت إمكاناته تقف عند حدود الممكن الذى يدرك بالتعليم ، أما المعجزة فهى شئ خارق للعادة)(١) .

ولكى يثبت أن إعجاز النظم والتأليف هو الوجه الصحيح الذى يمكننا من صوغ الدليل على الإعجاز رسم لنفسه منهجا قائما على المقارنة بين كلام البشر والقرآن وفى هذا المجال له باع طويل يتضح تماما من قراءة كتابه إعجاز القرآن لأن فيه مقارنات وموازنات بين النص القرآنى وكلام فحول الشعراء ويقول إنما صنعت ما صنعته (ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب وتباعد مواقع البلاغة وتستدل على مواضع البراعة فبعد حديث عن قصيدة إمرئ القيس الذى يعتبرونه شيخهم المقدم وقدوتهم الذى يرجعون إليه مثبتا ما فيها من قصور فيما عرض منها وهو يمثل ثلثى هذه المعلقة يعود فيذكر لنا نصين من القرآن الكريم هما سورتا النمل وغافر وسنجتزئ بأحدهما تدليلا على فكرة الرجل وبيان منهجه النقدى يذكر (الباقلانى) أن سورة غافر لو تأملها القارئ فسوف يجد فيها إعجازا فى النظم والتأليف خارجا عن نظوم البشر فيقول : تأمل من الكلام المؤتلف قوله تعالى (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير)(٢) .

يقول فانظر متى وجدت فى كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم فى هذا القدر ، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعانى وحسن الفاتحة والخاتمة ثم أتل ما بعدها من الآى واعرف وجه الخلوص من شئ إلى شئ من احتجاج إلى وعيد ومن إعذار إلى إنذار ومن فنون من الأمر شتى مختلفة

---

(١) مجلة معهد المخطوطات مقال د / سليمان الشطى ص ٢٠٩ ، ٢١٠

(٢) سورة غافر الآيات رقم ١ ، ٢ ، ٣

تأتلف بشريف النظم ومتباعدة تتقارب بعلى الضم .

ثم جاء إلى قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمه ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) (١)

وجه الوقوف على شريف الكلام :

أن تتامل موقع قوله (همت كل أمة برسولهم ليأخذوه) وهل تقع في الحسن موقع قوله (ليأخذوه) كلمة ؟ وهل تقوم مقامه في الجذالة لفظة ؟ وهل تسد مسده في الأصالة نكتة ؟ لو وضع موضع ذلك قوله (ليقتلوه) أو (ليرجموه) أو (لينفوه) أو (ليطردوه) أو (ليهلكوه) أو (ليذلوه) ونحو هذا ما كان ذلك بديعا ولا بارعا ولا عجيبا ولا بالغا . فانتقد موضع هذه الكلمة ، وتعلم بها ماتذهب إليه من تخير الكلام وانتقاء الألفاظ والاهتداء إلى المعاني ثم يقول : فإن فطنت فانظر إلى ما قاله من رد عجز الخطاب إلى صدره ، بقوله (فأخذتهم ، فكيف كان عقاب) ثم ذكر عقيبهما العذاب في الآخرة وأتلاها تلو العذاب في الدنيا ، على الإحكام الذى رأيت .

ثم يقول بعد أن يذكر الآيات التالية من أول قوله (الذين يحملون العرش ومن حوله) (٢) وهذا كلام مفصول تعلم عجيب اتصاله بما سبق ومضى وانتسابه إلى ما تقدم وانقضى وعظم موقعه في معناه ، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم وحكاية كيفية دعاء الملائكة (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) (٣)

---

(١) سورة غافر الآيتان ٥ ، ٦

(٢) سورة غافر الآية رقم ٧

(٣) سورة غافر الآية رقم ٧

هل تعرف شرف هذه الكلمة لفظا ومعنى ، ولطيف هذه الحكاية وتلاؤم هذا الكلام ، وتمثل هذا النظم ؟؟ فكيف يهتدى إلى وضع هذه المعانى بشرى وإلى تركيب يلائمها من الألفاظ إنسى ؟ (١)

من هذا الشرح والتحليل للنص القرآنى يتضح أن القرآن جاء معجزا بنظمه وتأليفه متميزا بخصوصيات تباين سائر كلام العرب وهى فى رأيه أصول تسعة :

١- أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد .

٢- أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والبلاغة واصلا للنهاية على نحو ما فى القرآن .

٣- أنه لا يتفاوت فيه النظم مهما اختلفت أغراض القول من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وأحكام .

٤- أن كلام العرب يتفاوت تفاوتا بينا فيما ينقسم إليه الخطاب .

٥- أن نظمه وقع فى البلاغة موقعا يخرج عادة عن كلام الإنس والجن على السواء .

٦- أن المعانى التى يتضمنها القرآن فى أصول الدين وفى تثبيت الحجة هى معانى جديدة تحتاج إلى تأنق فى اللفظ يلائم هذا المعنى فى فصاحة أسلوب ليس فى مقدور البشر ، على حين أنهم كانوا يتناولون معانى متداولة ومألوفة لديهم ، وذلك معنى الإعجاز .

٧- أنه يذكر اللفظة فى الكلام ويرى وجه رونقها باديا ، وتقع فى الحسن موقعا كأنها الياقوتة فى وسط العقد .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٠

٨- أن الحروف التي ينطقون بها معروفة لديهم وقد نبههم في فواتح السور حين ذكر الحروف المقطعة بأن القرآن ناهج على هذا النهج الذي يعرفون .

٩- أن القرآن خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر والصنعة المتكلفة(١) وهكذا يركز الباقلاني اهتمامه على التعبير القرآني في صورة عامة واطراد المعاني فيها وتآلفها وانسياب الألفاظ في سهولة ويسر والترابط في الصور البيانية والمعاني المعبر عنها ومن توقيع الفواصل توقيعا يساعد على فهم المعاني ومسايرا لها قوة ولينا ، ومما يلفت النظر اهتمامه بالوحدة الموضوعية فهو لا يهتم بموضوع الاستعارة . أو التشبيه أو سائر ضروب البيان في الآية الواحدة وإنما ينظر إلى السورة قصرت أم طالت على أنها هي الوحدة الموضوعية التي يمكن الحكم عليها بإعجاز النظم والتأليف لأنها هي التي تتوفر لها شروط الإعجاز الصحيحة وبهذا يكون (الباقلاني) مخالفا في منهجه للسابقين في آرائهم ودراساتهم إذ اعتبروا الآية والعبارة أو البيت من الشعر أو الشطرة الواحدة أساسا لبحوثهم وأقاموا عليها أحكامهم في الدراسة البيانية للقرآن الكريم ، مما يجعله على قمة القائلين بإعجاز النظم والتأليف .

ولكي يتضح الفرق بين كل من الأشاعرة - ممثلين في الباقلاني - وبين المعتزلة الذين قالوا بإعجاز النظم أيضا نرى أن نذكر شيئا من التفصيل كي يتضح الفرق بين النظرتين ، ونسارع فنقرر أن المعتزلة بشكل عام يعتبرون أن خصائص هذا النظم هو دليل كاف ومقنع في الذب عن هذا الكتاب العزيز في إثبات أنه من عند الله نظما وتأليفا ، ولكي تتحدد معالم القضية تماما سنعرض لآراء بعض مشايخهم في ذلك بادئين بالجاحظ الذي تميزت أبحاثه بالبحث في جودة اللفظ ورونقه وجماله ، مع مراعاة الجزالة والعذوبة والسهولة واليسر ، كل ذلك لفت نظره إلى أن ألفاظ القرآن تتطلب نوعا من الاستقصاء لجمال الألفاظ ومواقعها ولقد أدى به هذا الولوع إلى البحث في الحروف التي تتكون منها الألفاظ كما تعرض لاقتران الكلمة

---

(١) المصدر السابق ص ٦٠

بالكلمة وما يمكن أن يقع فى تعبيرات البشر من وحشى الكلام المتنافر غير المتآلف الذى يمجه السمع ويستغربه اللسان ويضرب لنا أمثلة كثيرة من شعر القوم ونثرهم مبينا ما فيها من الغريب المستكره ثم يبين أن مواقع الألفاظ فى القرآن غير مواقعها فى كلامهم ثم يعرض لو شائج القربى والصلة والترابط بين ألفاظ القرآن وكلماته ويقف طويلا متفحصا بعض آيات القرآن مثل قوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها)(١)

حيث قد جمع قوله سبحانه أخرج منها ماءها ومرعاها ، النجم والشجر واليقطين والبقل والعشب فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح وكل ذلك مرعى ، ثم قال على النسق (متاعا لكم ولأنعامكم) فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله ، لأن الملح لا يكون إلا بالماء ولا تكون النار إلا من الشجر (٢) فانظر كيف يعتبر أن اللفظة فى القرآن هى وعاء لمعان كثيرة تستقى من كلمتى (ماءها ، ومرعاها) وهذا يثير العجب العجاب فى المعانى التى تفتقت عنها ألفاظ القرآن . وقد كنا نتمنى أن يكون بين أيدينا كتابه الذى أسماه نظم القرآن حتى نقلب صفحاته الزاخرة التى عرفنا قيمتها من الكتب التى أثبتت بعض نصوص الكتاب المفقود يقول الجاحظ (ولى كتاب جمعت فيه آيا من القرآن لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول ، والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها فى الإيجاز والجمع بين المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال : (لا مقطوعة ولا ممنوعة) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى ، وهذا كثير قد دللتك عليه فان أردته فهو مشهور)(٣) هذا ويعتبر النسق الذى سار عليه الجاحظ

---

(١) سورة النازعات الآيتان ٣٠، ٣١

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣ ص٧٠٤ ط الشركة اللبنانية للكتاب

(٣) الحيوان للجاحظ جـ٣ ص٨٦ تحقيق د / عبد السلام هارون

في دراسة بلاغة القرآن ثمرة جهد طويل في المقارنات والموازنات بين تعبيرات القرآن وتعبيرات فحول القوم شاعرين وناثرين وهي كذلك تصوير دقيق يرقى إلى الصورة المثلى للتعبير عن فكر المعتزلة - بعامة - في هذه المسألة وقد يثور هنا سؤال ما هو الدافع الأساسي الذي أعطى للمعتزلة كل هذه الطاقة في الإغراق في الجرى وراء المجازات والاستعارات وغيرهما من مصطلحات علم البيان ؟

والجواب : أن أساس هذا الاتجاه هو تنزيه الله (عز وجل) أو هو الفهم للآية الواردة في سورة الشورى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١) فجميع من يعتد بهم من المتكلمين متفقون على تنزيه الله (عز وجل) عن شوائب النقص إلا أن السلف يأخذون النص على ما ورد دون البحث عما وراءه بيد أن المعتزلة ينطلقون من أساس عقلي اتخذوه ركيزة أساسية لمنهجهم الذي ساروا عليه في بحوثهم الكلامية من التعبير عن إعجاز القرآن في النظم والتأليف . وتظل قضية إعجاز القرآن في نظمه مطروحة أمام الباحثين كل ينافح عنها ليصل إلى بغيته في إثبات أن القرآن معجز فيأتي (الرماني) من بعد (الجاحظ) ليتحدث عن بلاغة القرآن في ألفاظه ومعانيه مثبتا أن هذه الناحية هي سر الإعجاز فيه .

وجاءت المدرسة الجبائية لتعطينا تفصيلا أكثر حيث تحدثت عن إشتمال القرآن على نهاية الفصاحة فلابد من وجود صفات في الكلمة تجعلها فصيحة في نفسها هذه الصفات هي :

أ - ملاحظة الأبدال والنظائر للكلمة

ب - التغير الذي يحدثه اختلاف مواقع الكلمة .

جـ - موقعها من حيث التقديم والتأخير وما يترتب عليه من إصابة المعنى المراد الذي هو النتيجة المرجوة .

---

(١) سورة الشورى الاية رقم ١١

تلك أمور لابد منها للكلمة الفصيحة .

وقد أجمع الفصحاء - في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن بعد عصر النبي إلى الآن - على أن القرآن قد توفرت له هذه الامور ومن ثم أجمع القوم على فصاحة ألفاظه وبلاغتها في إصابة المعنى المستهدف وعرف ذلك فيه العرب الذين هم ذوو مراس ومران ودربة في فن القول ، وتبلغ نظرية إعجاز النظم والتأليف تمامها في صياغة القاضي (عبد الجبار) حيث تجوهرت في النقاط التالية :

أولا : إن القران في الدرجة العالية من الفصاحة .
ثانيا : إن العرب قد عرفوا أن فصاحة القرآن هي مناط التحدى
ثالثا : أنهم لم يستطيعوا مزاحمته أو معارضته لهذه العلة .

ولذا فان من الطبعي أن يثير لنا في كتابه (المغنى) قضية النظم القرآني في ألفاظه وتراكيبه وما يستلزم ذلك من فصاحته كله وبحكم فرقته الكلامية الاعتزالية عرض القضية في ذلك الإطار الذى يعبر عن فرقته تعبيرا دقيقا أمينا منتهيا إلى أن القرآن قد جاء بنظم منفرد في الفصاحة في نظمه وتأليفه بمعنى (أن الله تعالى قد خص نبيه بالقرآن على نظام لم تجر العادة بمثله مع اختصاصه برتبة في الفصاحة) إذ أن (خروجه عن العادة في الفصاحة يوجب كونه معجزا بإنفراده لأنهم لا يريدون النظم دون رتبة الفصاحة وإنما يريدون بذلك أنه تعالى جاء بالقرآن على أوكد الوجوه في نقض العادة وأوكدها أن يكون نظاما مباينا لما تعارفوه ، مع رتبته العظيمة في الفصاحة وهذا بين) (١)

ويدلل القاضي (عبد الجبار) على ما قرره من أن وجه الإعجاز في القرآن هو النظم والتأليف مع الفصاحة بقوله إن (فصاحة القرآن ليست في حاجة إلى التدليل عليها بدليل (أن العرب المعاصرين للنبى (صلى الله عليه وسلم) لم يناقشوا فيها باعتبار أنهم كانوا خبراء بما يباين المعتاد من الفصيح

---

(١) المغنى للقاضي عبد الجبار جـ ١٦ ص ٣٢١ .

للتجربة والعادة فلم تكن عند سماع القران والوقوف على مزيتـه محتاجة إلى رصيد جديد من الخبرة بل علمت خروجه عن العادة ٠

ومن قصر حاله عن حالهم فكمثل ، لأنه إذا عرف بالتجربة تعذر مثل كلامهم عليه فبأن يتعذر عليه أولى) (١) والذى لا شك فيه أن حجج القاضى عبـد الجبار كانت موضوعية ذات طابع عقدى وما نستطيع تحصيله من كلامه أن إعجـاز النظم قد بلغ فى كتاباته حدا عاليا فى الصياغة النظرية لإعجاز النظم مضافـا إليه الفصاحة حيث هى ميزة النص القرآنى والخلاصة أن الأشاعرة وكثيرا مـن المعتزله يقولون إن إعجاز القرآن كامن فى نظمه وتأليفه وأن كلا الفريقين قـد سلكوا للتدليل على ذلك مسالك مختلفة والذى نراه أن (الباقلانى) قد أبرز لنا ذلك الإعجاز فى نظرية متكاملة الصياغة لا تبحث بحثا جزئيا فلا الألفـاظ وحدها معبرة عن الإعجاز ولا البلاغه فى معانيها ولا هو فى آية واحدة إنمـا القرآن كله وحدة متكاملة لا يرام فيه ثلمة وهذا هو الذى يحرك دوافع الإيمـان فى النفس وتستريح إليه البصائر ٠

الوجه الثانى من وجوه إعجاز القران :

الإعجاز بالصرفة :

ومعنى الإعجاز بالصرفة هو أن الله صرف هـمم العرب ودواعيهم عـن معارضة القرآن رغم أنه لم يتجاوز فى بلاغته مستوى طاقتهم البشرية ٠ وكانـت معارضتهم للقرآن مقدورا عليها غير معجوز عنها لولا ذلك الصارف الإلهـى الذى صرفهم واقعد هممهم عنها ٠

ونسب هذا الرأى إلى أبى إسحاق النظام من المعتزلة والشريـف المرتضى من الشيعة ٠

---

(١) نفس المصدر السابق ١٦ ص ٣١٤

ثالثهـــــد القول بالصرفـــــة :

هذا الرأى ظاهر الفساد لا يثبت أمام البحث ولا يتفق مع الواقـــــع والقائلون به هم من نقصان الفطرة الإنسانية بمكان ـ حسب تعبير أبى حيـــان الأندلسى فى كتابه البحر المحيط ـ والدليل على فساد هذا الراى .

اولا :

قول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثـــل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(١) .

فقد بنيت الآية أن العرب المعارضين للرسول (صلى الله عليه وسلم) إذا اجتمعوا وأعملوا الفكر وركبوا متن كل صعب وذلول فإنهم لا يأتون بمثل هذا القرآن مهما أجالوا الفكر والنظر حتى ولو ظاهرهم فى ذلك بقية البشـــر والجن أيضا .

ولا يتصور اجتماع الإنس والجن ومحاولتهم الإتيان بمثل القرآن إلا مـــع بقاء قدرتهم إذ لو سلبوا القدرة لم يبق لاجتماعهم فائدة حيث يكون هـــــذا الاجتماع بمثابة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يوءبه له أو يحفل به (٢)

ثانيـــــا :

القول بالصرفة يوءدى إلى أن الإعجاز خاص بأولئك الذين تحداهـــم القرآن وقت نزوله أن يأتوا بمثله فلو صح هذا القول لكان فى مقدور القـــوم الذين صرفوا أن يحتجوا بكلام آبائهم الذين لم يصرفوا ويعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن وهذا ما لم يحدث ، ومن ناحية أخرى فإن الإعجاز يزول بزوال زمن التحـدى

---

(١) سورة الاسراء الاية رقم ٨٨

(٢) البرهان للزركشى ص٩٤ جـ٢ ط عيسى البابى الحلبى

ويكون فى إمكان اللاحقين من جهابذة البيان أن ياتوا بمثل القرآن ، ولكن عجز القدماء والمحدثين ظاهر للعيان ويشهد به التاريخ حيث جاء الخبر المتواتر بأن أحدا لم يستطع معارضة القرآن ممن عاصروا نزوله أو كانوا قبله أو تتابعوا بعده إلى يومنا هذا وإلى يوم الدين .

ثالثا :

انعقد الإجماع قبل القائلين بالصرفة على إضافة الإعجاز إلى القرآن نفسه وليس إلى سبب خارج عنه ، وهذا مالا يتفق مع القول بالصرفة الذى يؤدى إلى أن القرآن ليس فيه إعجاز ذاتى ، وإنما العجز واقع بسبب الصرفة التى حدثت لهم من الله ولما كان فى القول بالصرفة مخالفة للإجماع فإنه لا يعتد به ويجب طرحه والالتفات عنه .

الوجه الثالث من وجوه الإعجاز ـ الإخبار عن الغيوب :

قال قوم إن ما حواه القرآن (من أخبار القرون السالفة فى الأزمنة الخالية والعصور الماضية فى الأماكن القاصية والدانية وقصص الأنبياء مع أممهم مما التمسوه منه مثل قصة أهل الكهف وقصة الخضر وموسى (عليهم الصلاة والسلام) وحال ذى القرنين ومالم يسألوه عنه من قصص بقية الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) مع تحققهم من أنه أمى لا يحسن الكتابة ولا تقدمت منه دراسة ولا سبقت منه رحلة ولا انتهت إليه نحلة ولم يكن بأرضه من يعلم الأخبار ويقتفى الآثار) [1] وحتى أولئك الذين قد يتطرق إليهم احتمال المعاونة والمساعدة فى نقل الأخبار بما لهم من سمات من أبرزها الرحلة والتنقل بصفة مستمرة وهم أهل الكتاب ، فالتاريخ يطلعنا أن العلاقة بينهم وبين النبى (صلى الله عليه وسلم) لم تكن إلا تسفيها لأفكارهم وعقولهم وإظهارا لما لهم من معايب فى طرق التفكير فليس من المعقول أن يكون قد

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ص ٢٤٣ ط بيروت

تعلم منهم مستور التاريخ ثم تستمر علاقة التهجم عليهم بمثل هذه القسوة فما الذى يمنعهم ـ لو كان الأمر كما يهجس به أولئك الزاعمون ـ أن يقابلوه بالأخبار عن حقيقة ما يدعي وساعتها يكونون في موقع يمكنهم من التقريع والتعنيف والتأنيب للرسالة وصاحبها أما والتاريخ لم يذكر شيئا عن ذلك رغم توفر الدواعى على نقله إن حدث ، فهذا يفضى إلى أن ما يتلقاه إن هو إلا وحى من الله الذى أعده واصطفاه لهذه الرسالة وفى ذلك الإخبار خرق للعادة دال على صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) على أن الامر اللافت للنظر أن جميع ماذكره القرآن من أخبار عن الغيوب الضاربة في بطون التاريخ غير قابلة للتشكيك فيها من الدارسين المتخصصين مع ملاحظة أن الذى يتلوها هو أمى قد خرج من أظهر قوم أميين لكنه يتلو على الناس تفاصيل بلغت من الدقة العلمية ، مبلغا يلاحظ فيه تسجيل الأرقام الحسابية فيذكر أن (نوحا مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وكما ترى فى الأخبار عن أصحاب الكهف أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا وهذه السنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية . وحسبنا أن نتامل فى هذه الدقة الحسابية لندرك انها لا يمكن أن تلتمس من داخل نفس النبى (صلى الله عليه وسلم) وضميره ولا هى أيضا من أقيسة عقله بل لابد أن تلتمس خارج شخصية النبى (صلى الله عليه وسلم) وحدودها ، إنها من وحى الله الذى أطلعه على حقائق الماضى كأنها ماثلة أمامه وقد طويت له القرون وقربت له السنون والأعوام حتى حكى ما حكاه عنها على النحو الذى أوضحناه) (١) .

هذا عن غيب الماضى وأما عن غيب المستقبل فمنه إخبار القرآن عن الروم بعد هزيمتهم بأنهم سوف ينتصرون على الفرس فى بضع سنين قال تعالى "ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) (٢) ..... هذه الآيات تقرر أن الروم ـ وهى دولة مسيحية ـ

---

(١) النبأ العظيم د / محمد عبد الله دراز ص ٣٠

(٢) سورة الروم الآيات من ١ ـ ٤

قد غزيت في عقر دارها من دولة مجوسية هي الفرس وقد أصابها من الوهن والضعف ما أصابها والمقدمات تفضي إلى أن النصر بعيد عنها بعد السماء عن الأرض ثم هو يخبر أن الروم ستنتصر وليس ذلك فقط بل إنه يحدد زمنا معلوما للنصر وهو بضع سنين وجاءت كلمة البضع هنا أوفى وأشمل في بيان الغرض الذى قصدت اليه الآية ، ذلك أن الناس يختلفون في حساب السنة فمنهم من يوءقت بالشمس ، ومنهم من يوءقت بالقمر ، ولذلك جاء القران بهذه اللفظة ليدلل على أن هذه المدة هي بضع سنين ويقع النصر ، فيما بين الثلاث والتسع ، وقد تحقق ما أخبر به القرآن فقد غلبت الروم فارس وانتصرت عليها بعد ثماني سنوات من هزيمتها ٠

والناظر إلى آخر الآية يجد عجبا فقد أخبر بانتصار آخر هو انتصار المسلمين على المشركين وقد كان المسلمون يومئذ في قلة لا يحلمون بالنصر أو يفكرون فيه فأخبرهم بأنهم سينتصرون أيضا على المشركين ويفرحون بنصر الله ، وقد تم ذلك عندما انتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر ، وهكذا احتوت الآية على بشارتين الأولى انتصار الروم على الفرس والثانية انتصار المسلمين على المشركين في وقت انتصار الروم على الفرس وذلك في غزوة بدر الكبرى ٠ وأمثال ذلك في القرآن كثير قد دللنا عليه بما ينوب عن غيره كي تتبين حقيقة كونه دالا على إعجاز القران ٠

ونتساءل أين كوامن الإعجاز في الإخبار عن الغيب ، هل هي في مجرد الإخبار عن الغيب أو هي في وقوع المخبر عنه ؟ والحق أن الإعجاز كما يرى (الآمدى) (ليس نفس الإخبار عن وقوع المخبر عنه ؟ إذا كان من الأمور العادية بل المعجز في ذلك علمه بالغيب الذى دل عليه وقوع المخبر عنه ونبادر فنقول إن الإخبار بالغيب هو وجه من وجوه الإعجاز عند أهل السنه ولم يختلف معهم أحد من المتكلمين حتى القائلين بالصرفة في أن الإخبار بالغيوب أمر خارق للعادة ومن ثم تقع به المعاجزة إلا أنهم لا يرون أنه يتحقق في

كل سورة وعليه فليس هو الوجه الذى تقع به الحاجة فى إعجاز القرآن ويوضح (الخطابى) اتجاه شيوخ أهل السنة فى التقرير التالى .

(زعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمه من الإخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان ولا يشك أحد فى أن هذا وما أشبهه من إخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن وقد جعل سبحانه فى صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها فقال تعالى :
(فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (١)
من غير تعيين فدل هذا على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا اليه) (٢) .

هذا ما أوضحه هذا الإمام الجليل من مذهب أهل السنة فى هذا الشأن ويكاد المعتزله ينهجون نفس النهج تماما فيما أوضحه القاضى (عبد الجبار) وهو من غير شك الأمين على فكر المعتزلة حيث نراه يحدد القضية على النحو التالى :

ماذا يراد بالإخبار عن الغيب ؟ الواقع أن فيه احتمالين :

الاحتمال الاول :

أن نقصد به الدليل على صدق النبى (صلى الله عليه وسلم) فهو من هذه الجهه دليل صحيح يحقق المطلوب منه .

الاحتمال الثانى :

هو أن يكون الإنباء بالغيب هو مناط التحدى وركيزته وهذا يراه القاضى (عبد الجبار) أمرا غير صحيح يستعصى على الإدراك العقلى والتقرير التالى

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢٣ .

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القران ص٢٤

يشرح ما بيناه (فأما من قال إنه (صلى الله عليه وسلم) إنما تحدى بالقرآن من حيث تضمن الإخبار عن الغيوب فبعيد ، لأنه قد تحدى بمثل كل سورة من غير تخصيص ولا يتضمن كل ذلك الإخبار عن الغيوب ولأنا نعلم أنه تحدى بجملته لا ببعضه) . (١)

الوجه الرابع من وجوه إعجاز القرآن :

هو اشتماله على حقائق علمية ثابته لم يقدر العلم الحديث أن يدخل الشك أو الظن عليها :—

بل على العكس من ذلك أيد ما في القرآن بطريق التجارب التي قام بها العلماء بوسائلهم المختلفة ، فمثلا إخباره عن أن السموات والارض كانتا شيئا واحدا ثم انفصلتا فقال تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) (٢) .

وما من شك في أن هذه الآية مثل رائع في وضع الحقائق وتقريرها ويتضح ذلك من استخدام أسلوب التقرير الممثل في الاستفهام الذى هو في بداية الآية ، إنها تحث على وجوب التدبر والتأمل في خلق الله وما فيه من إبداع واستخدام الإمكانات المتاحة في الأكوان وأولها العقل ، ثم تأمل فيما تثيره كلمتا الرتق والفتق وكذلك إسناد صفة الحياة إلى الماء وهى من غير شك تحتاج إلى تفصيلات أوفى ، ومثله ما أخبر به القرآن عن الأطوار السبعة التى يمر بها الجنين في بطن أمه على نحو ما فصلته سورة المؤمنون في قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (٣)

---

(١) المغنى للقاضي عبد الجبار جـ ١٦ ص ٢٨١ .
(٢) سورة الانبياء الآية رقم (٣٠)
(٣) سورة المؤمنون الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

وكذلك ما أخبر به عن تنقل القمر في منازل مختلفة ومسايرة الشمس من غير أن يحدث اختلال بينهما في دقة السير (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)(١) وعن تكون السحاب في السماء ونزول الأمطار في مكان وصرفه عن غيره يقول تعالى (ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)(٢)

وموضع الإعجاز في هذا أن القرآن قد أخبر عن حقائق علمية ما كان لعصر الرسالة ولا لصاحبها أن يخبر بها على هذا النحو من الدقة مع ملاحظة أن المجتمع الإنساني في عصر القرآن لم يكن مؤهلا لرصد هذه الظواهر العلمية فقد كانت العقول وقتها تخطو رويدا رويدا في اكتساب المعرفة وذلك يؤدي إلى أن تلك الحقائق التي عرضها القرآن إنما هي من خالق الكون العليم بأسراره ونواميسه بل إنه سبحانه وتعالى هو مبدع هذه الأسرار وفاطر تلك النواميس . ونلفت النظر إلى أن ثمة فريقا من المشتغلين بالدراسات القرآنية قد دأب على التعقيب على الاكتشافات العلمية الكونية بقوله إن القرآن هو الذي سبق إلى اكتشاف هذه الحقائق قبل العلم الحديث ونحن وإن كنا نقدر دوافعهم التي ينطلقون منها وهي حبهم للكتاب العزيز الذي جعلهم يتصورون أن الله تعالى قد ضمنه علوم الدنيا كلياتها وجزئياتها وما قد يظهر بعد من مكتشفات كانت مجهولة للعلماء متصورين أن هذا هو السبيل الأمثل لخدمة القرآن ولكنهم يقعون من حيث لا يعلمون في مهواة من الخطأ لاعاصم منها إذ هم مضطرون إلى دوام المقارنة والموازنة بين نصوص الكتاب العزيز وبين النظريات العلمية لتطويعها للنص القرآني أو تطويع النص لها وهذا تكلف لا معنى له ـ فيما أرى ـ لأن القرآن لم ينزل للكشف عن تلك المخترعات

---

(١) سورة يس الآيتان (٣٩، ٤٠)
(٢) سورة النور الآية رقم ٤٣ .

وتفصيلها وإنما وردت فيه بعض الحقائق العلمية تبعا فنقف عند ذلك وقفة المتأمل دون أن نسير في هذا الاتجاه فربما أخطأ الباحثون في اكتشاف ما ثم يربط أولئك المتحمسون لهذا النهج من التفسير بين الاكتشاف الجديد وبين بعض آيات القرآن ثم يجئ الجيل اللاحق ويثبت خطأ من سبقه فتكون تلك وسيلة للهمز واللمز والطعن على القرآن، وليس معنى ما ذكرناه أن نهمل العلاقة بين الإشارات العلمية الواردة في القرآن والحقائق المكتشفة أثناء حركة التاريخ .

غاية الأمر أننا نحذر من المقابلة بين هذه الإشارات وبين النظريات العلمية بلا قيود ولا انضباط لأن المسأله مسألة حديث عن وجه من وجوه إعجاز القرآن فيجب أن نتوخى الدقة التامة فلا نفتعل مناسبة أو نتشبث بلفظ أو نحمله فوق ما يحتمل أو نجهل أو نتجاهل حقائق التاريخ .

فما هدف القرآن الأساسى لإبناء عقيدة التوحيد وتثبيتها في النفوس وما جاء ليقرر ما كشفت عنه علوم الوراثة والكيمياء الحيوية والفيزياء ... ونحو ذلك وهذا ما دفع الدكتورة (بنت الشاطئ) إلى القول بأن (الوجدان الدينى للأمة المسلمة ظل يقاوم هذه المدسوسات والمقحمات ، بصفاء الإيمان وإلهام البصيرة ... ومهما تكن العصور المتطاولة قد باعدت بين القرآن وتفسيره ، فلم يخل أى عصر من صوت يحذر الأمة من مدسوسات الإسرائيليات ومقحمات البدع والأهواء ، ولا أعوز الامة في ليل محنتها ، شعاع من النور يهدى مسراها في الظلام). (١)

فالحــل إذًا :

هو أن نضع لذلك الاجتهاد منهاجا ، وأن نضع للمجتهد شروطا ، وأن ننبه الى مزالق الخطأ ، وموارد الزلل ، وكبوات الاجتهاد .

---

(١) سلسلة عالم الفكر مقال د / عبد الحافظ حلمى محمد العلوم البيولوجية فى خدمة تفسير القرآن الكريم ص١٠٠٧ المجلد الثانى عشر ط ١٩٨٢

الوجـــه الخامس من وجوه الإعجـــاز :
أثر القرآن في نفوس سامعيه :ـ

إن القران الكريم قد أحرز عناصر الفطرة البيانية بحيث لا يسمعه سامع أيا كان دينه إلا ويحس بالروعة والهيبة ولين القلوب مهما كانت عداوته للرســـول ، ومن ثم كان تأثير القرآن في نفوس أعدائه وأوليائه والاعتراف له بأنه هو ضميــــر الحياة وهو الذى ينزل منها منزلة القلب من الجسم ولذلك اعترفوا به رأذ عنــوا برغم عنادهم ومكابرتهم فاعترفوا بأن له هيبة تملك عليهم وجدانهم وتثير نفوسهم وتحرك ألبابهم وهذا الوجه قد فطن إليه (الخطابى) الأديب اللغــــوى المحدث وكذلك الأديب المعاصر (مصطفى صادق الرافعى) فذكر (الخطابـــى) (أن هناك وجها من وجوه الإعجاز ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كــــلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا ، إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللـــذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلـــــود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها) (١)

والناظر المدقق يدرك المدى الذى تأثر به الأعداء حين سمعوا القرآن فتحول ولاؤهم لأصنامهم وآلهتهم إلى ولاء لكتاب الله العزيز ورسوله الكريــــم. وهل كان قلب عمر إلا مثالا واضحا على تبدل الولاء والانتماء من الوثنيـــــة البغيضة إلى الإسلام ومثله عتبة بن ربيعة الذى لم يستطع أن يفلت مـــــن تأثير القرآن على قلبه ولكن التقليد والجمود الفكرى وقسوة القلب هى التـــــى وقفت حائلا دون إسلامه يذكر التاريخ أن عتبة بن ربيعة اقترح على قومـــه الذهاب إلى النبى رغبة في مفاوضته وزحزحته عن شىء من عقيدته فلما انتهـــى إليه وعرض ذلك عليه قال النبى (صلى الله عليه وسلم) فاسمع منى فقـــــلا

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٠ وما بعدها .

(صلى الله عليه وسلم) عليه :
بسم الله الرحمن الرحيم (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون)(١) ثم انتهى منها إلى السجدة فسجد ثم قال (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك) فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به (٢) . ومثله ما يرويه لنا ابن هشام من أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون حتى إذا طلع القمر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا وتكررت الحادثة فى الليله الثانية والثالثة فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا (٣) .

هذا هو تأثير القرآن فى نفوس أعدائه اعتراف بسيادته وتسليم بتأثيره فى نفوسهم رغم عنادهم ومكابرتهم ومحاربة صاحب الدعوة وتفننهم فى إيذائه ، ولكن الحقيقة دائما تفرض نفسها وتظهر حتى على لسان المكابر فيها والمعاند لها إذ أنها تغافله وينطق بها دون أن يشعر والأخبار الآنفة الذكر تثبت لنا أن المشركين لم يستطيعوا فيما بينهم أن يشككوا فى حلاوة القرآن لأنهم عرب لم تنحرف سليقتهم ، ولذلك فإن الاعتراف هنا بجمال القرآن اعتراف له وزنه ، واعتراف من أشخاص معروفين بين قومهم وبعدائهم للرسالة وصاحبها وإذا كان تأثير القرآن فى نفوس أعدائه شديدا قويا إلى حد أنه أرغمهم على الاعتراف له بالسيادة على كل كلام فكيف حاله فى نفوس أوليائه ؟ !!

---

(١) سورة فصلت الآيات من ١ـ٤
(٢) سيرة ابن هشام ص٣١٣ ، ٣١٤ ج١ ط دار التحرير
(٣) المصدر السابق ص٣٣٧ ، ٣٣٨

إن الأخبار والآثار تحدثنا على كثرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يقرأ القرآن وإن له ازيزا كأزيز المرجل من الرهبة والخشية والاحترام والإجلال والتقديس ، وعلى هذا الحال كان صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعيشون فى نصه وتنعقد الصلة بين نفوسهم وبين معانيه يقرأونه في صلواتهم وفى غدواتهم وروحاتهم ... تحدثنا الأخبار أن أبا بكر رضى الله عنه كان لا يتحكم فى دموعه إذا قرأ القرآن ، وكان عمر إذا قرأ القران بكى حتى إنه فى إحدى الصلوات الجهرية غلبته دموعه ولم يستطع مواصلة القراءة وسمع نحيبه من وراء ثلاثة صفوف وكذلك عبد الله بن عمر كان يقرأ فى إحدى الصلوات الجهرية (ويل للمطففين) فلما أتى إلى قوله تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) انقطع عن القراءة وعجز عن قراءة الآية التى تليها من شدة البكاء .

والأمثلة على تأثر صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالقرآن دينا ودنيا أكثر من أن تحصى وأبعد من أن تستقصى .

ولنا أن نقول إن هذه الهيبة التى يحسها قارئ القرآن أو سامعه مهما اختلف دينه هى مسلك خفى من مسالك الإعجاز تدركه النفس، وتحسه وهى فى نفس الوقت عاجزة عن تصويره أو وصفه وتجد نفسها فى آخر الأمر مضطرة إلى الإذعان له رضيت أم أبت . وذلك فرق ما بين الكلام المعجز وغيره ، فليس إلا أن تقرأ الآية على العربى حتى تأخذ من نفسه موقعها وتسكن فى قلبه وتستولى على مشاعره دون أن يستطيع الفكاك منها بحيلة أو بأخرى فى حين أنها إذا سمعت كلام البشر قارنت ووازنت ونقدت وأخذت ورفضت بينما هى لا تحس فى القرآن إلا طريقا واحدا متشابه الأطراف متشابكها .

كأنما النفوس فى العجز عن محاكاته أو مساماته إنسان واحد منذ نزل القرآن إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مؤثرا فى النفوس مستوليا على القلوب .

ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل قوله سبحانه (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) (١) .

---

(١) سورة الزمر الآية رقم ٢٣ .

خامسا : أن المسلمين قد عكفوا في جدية وثبات على دراسة القرآن والسنة باعتبار أنهما الوحي المنزل على سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن ثم كان التعويل عليهما في استخلاص العقائد التي كانوا يتلقونها من الرسول (صلى الله عليه وسلم ٠)

سادسا : ظل المسلمون بعيدين عن التحدث في الصفات إلى قرب انتهاء القرن الأول الهجري ثم دخل في الإسلام أناس ذوو نزعات متباينة فبعضهم كان صحيح القصد في اعتناق هذا الدين وبعضهم قد وجهته علل نفسه المريضة فأدخلوا على الناس كلاما لم تعرفه الأمة الإسلامية في الصدر الاول ٠

سابعا : أن هذه المسائل الوافدة قد أدخلت الشك على بعض النفوس مما أدى الى الافتراق والتناحر نتيجة للاستعانة بأساليب أجنبية عن هذا الدين حرك بعضها شياطين أكثر حقدا وكيدا للإسلام من أدواتهم التي يحركونها وانتهى الأمر بان افترقت الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة بعضها كانت له دوافع سياسية تحدوه الرغبة في الاستيلاء على السلطة وآخرون كان لهم دوافعهم الدينية ٠

ثامنا :كان أبرز هذه الفرق على الساحة الفكرية فرقتين ، المعتزله ، والأشاعرة ونسجل هنا بكل الأمانة العلمية أن كلا الفريقين كان يهدف إلى تنزيه الله (عز وجل) عن المماثلة للمخلوقات إلا أن لكلا الفريقين منهجه في إثبات التنزيه ، فالمعتزلة يرون أن العقل ركيزة أساسية لا تغلب في استخلاص العقائد ، وهو بمثابة الكاشف لدروب المعرفة والقاضي النافذ الحكم ، ويجب تأويل النص إن تعارض مع العقل ٠

وأما الأشاعرة فيرون أن النص هو الأساس في فهم الحقائق ووظيفة العقل هي التحليل والتفسير والبيان والتبيين والشرح لما جاء في النص ويجب أن نرميه بالعجز إن قصر ٠

خاتمـــة البحث ونتائجـــه

تلك كانت بعض وجوه الإعجاز في القرآن ولابد أننا قد وصلنا الـــى معطيات لهذا البحث هي في الواقع خلاصة مركزة له :

اولا : أن القرآن ليس من عمل أحد ولا من صنعة الرسول (صلى الله عليـــه وسلم) بل هو فيه بمنزلة المتلقي ليس له إلا الحفظ والقراءة على النـاس والبيان والتبيين والتفسير لأن القران هو كلام الله تعالى المكتوب في المصاحف المنقول إلينا بالتواتر المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصـــــر سورة منه .

ثانيا :أن القران والسنة هما المرجعان الرئيسان اللذان تستقى منهما عقيدة التوحيد غير أن القرآن الكريم هو الأساس والسنة شارحة له .

ثالثا :أن المتتبع لأسلوب القرآن ومنهجه في إثبات العقائد المتصلة بذات الله وصفاته وكمالاته وتنزيهه عن شوائب النقص يدرك الفرق بين أسلوبـــه وأساليب البشر مهما بلغوا الشأو في الفصاحة ، فأسلوب القرآن يمتـــاز بالسهولة في استخلاص معطيات القضايا على حين أننا واجدون فـــي الأساليب البشرية أدلة معقدة أكثرها جدلي يدفعها الانتصار لمذهب معين والهجوم على رأى مقابل وتلك نتائج ما كان أغنانا عنهــــــا لو أننا اتبعنا منهج القران .

رابعا :أن الباحث في أساليب القرآن يدرك إدراكا لا لبس فيه أن القـــران قد دعا إلى إعمال العقل وعدم الحجر عليه ونعى على المقلديــــن للآباء والذين وضعوا أنفسهم ـ وهم قادرون ـ في دائرة التبعيــــة لغيرهم لكنه وضع العقل في إطاره المحدد بمعنى أنه القادر علــــى البرهنه التي تؤدي إلى العلم الصحيح إلا انه ليس قادرا على بحـث كل ما في الكون من مسائل فهناك أمور لا يستطيع العقل أن يبحثها بغير هداية من الشرع ومن ذلك ، المسائل المتصلة بذات اللـــــه وصفاته والأخلاق والشرائع .

تاسعا : أنه لا مناص من الاعتراف بأن علم الكلام قد قام بدورها م في الحياة الفكرية الإسلامية دفاعا عن العقائد الإيمانية المتلقاه من صاحب الشريعة (صلى الله عليه وسلم) في فترة كثرت فيها أساليب الهمز واللمز والطعن في العقائد حتى قادهم تفكيرهم السقيم إلى محاولة النيل من القرآن بالتشكيك في إعجازه ٠

عاشرا : أن القران الكريم قد انطبق عليه تعريف المعجزة وشروطها فقد كان خارقا لعاداتهم المفطورين عليها في فن المنظوم والمنثور وقد جاء القرآن من متعلقات قدرة الله عز وجل والثابت أنه قد تحداهم في صناعتهم التي يحسنونها وبضاعتهم التي يفاخرون بها وأنه أرخى حبل التحدى إلى درجة أنه قطع جميع أعذار المعتذرين أو المسوفين فما وصفهم التاريخ بعد هذا التحدى المرير ـ الذى يبعث على المناجزة والمطاولة ـ إلا بالعجز النافذ والضعف المخجل أمام التنزيل الحكيم ٠

حادى عشر : أن اشتغال الباحثين في القرآن وعلومه قد أثري المكتبة الإسلامية في علوم كثيرة كالعقيدة والتفسير والأدب وما يستتبعها من البحوث البلاغية في الحقيقة والمجاز وما إليها ٠

ثاني عشر : أن مسالة الإعجاز قد عولجت ضمن مباحث علم الكلام وأن المتكلمين قد انبروا إلى تأصيلها باعتبار أن النيل منها يستهدف الطعن في العقيدة فلا غرابة في أن تظهر مؤلفات الأعلام منافحة عن هذه القضية ملبسين إياها ثوب القداسة معلنيين أنها المنطقة المحرمة التي لا يجوز النيل منها تصريحا أو تلميحا ٠

ثالث عشر : أدت كتابات الأعلام من أمثال الرماني والخطابي والباقلاني والجرجاني وغيرهم إلى تجوهر نظريات الإعجاز ٠

رابع عشر : ما من شك في أنه قد تعددت وجوه الإعجاز في القرآن ولكن الوجه الأشكل به عندنا هو إعجازه من جهة نظمه وتأليفه فما يختلف أحد من

العلماء في أن الإخبار بالغيب الذى سوف يقع خلال السنين المتطاولة هو دليل على صدق القرآن ونبيه لكنه من ناحية أخرى مقصورا على حادثة معينة ومن ثم فإنه لا يمكن انسحاب ذلك النوع من الإخبار بالغيب على جميع آيات القرآن وسوره .

خامس عشر : أنه قد تعددت كتابات المشتغلين بالدراسات القرآنية وأنهم جميعا قد أجمعوا على إعجازه وإن اختلفوا في طريقة الوصول إلى النتيجة المرجوة (١٥٠) .

سادس عشر : أن الأشاعرة وكثيرا من المعتزله يقولون إن إعجاز القرآن كامن في نظمه وتأليفه وأن كلا الفريقين قد سلكوا للتدليل على ذلك مسالك مختلفة والذى نراه أن الباقلانى قد أبرز لنا ذلك الإعجاز في نظرية متكاملة الصياغة لا تبحث بحثا جزئيا فلا الألفاظ وحدها معبرة عن الإعجاز ولا البلاغة في معانيها ولا هو في آية واحدة إنما القرآن كله وحدة متكاملة لا يرام فيه ثلمة وهذا هو الذى يحرك دوافع الإيمان في النفس وتستريح إليه البصائر .

سابع عشر : لا يرتضى الباحث ما ذهب إليه (النظّام) من القول بالصرفة بمعنى أن الله صرف همم العرب ودواعيهم عن معارضة القرآن رغم أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية وأثبت أن القائلين به هم من نقصان الفطرة الإنسانية بمكان لأن الله قد تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله مع اجتماعهم وتعاونهم على ذلك ولا يتصور عقلا اجتماع الإنس والجن ومحاولتهم الإتيان بمثل القرآن إلا مع بقاء قدرتهم إذ لو سلبوا القدرة عليه لم يبق لاجتماعهم فائدة حيث يكون هذا الاجتماع بمثابة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يوبه له أو يحفل به .

ثامن عشر : أن التحدى الذى ورد فى القرآن وإن وجه إلى المعاصرين للرسول (صلى الله عليه وسلم) لكنه ينسحب بالتالى على جميع العصور اللاحقة باعتبار أن عصرهم كان أفصح العصور ولما ظهر نكوصهم ونكولهم عن قبول التحدى وبان عجزهم واضحا كان غيرهم ألصق بهذا العجز وأولى به ٠

ثبت بالمراجع

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ السنه المطهرة
٣ ـ أثر القرآن فى تطور النقد العربى د / محمد زغلول سلام ط المعارف
٤ ـ أصول الدين للبغدادى ط بيروت
٥ ـ إعجاز القرآن للباقلانى ط مصطفى البابى الحلبى ط ١ سنه ١٩٧٨
٦ ـ إعجاز القرآن للرافعى ط . دار الاستقامة .
٧ ـ إعجاز القرآن البيانى د / حفنى محمد شرف ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
٨ ـ الإسلام والعقل د/ عبد الحليم محمود ط المعارف
٩ ـ الإعجاز البيانى للقرآن د / عائشة عبد الرحمن ط المعارف
١٠ ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلانى ط بيروت
١١ ـ البداية من الكفاية فى الهداية فى أصول الدين ـ نور الدين الصابونى
١٢ ـ البرهان للزركشى جـ٢ ط عيسى البابى الحلبى
١٣ ـ البيان والتبيين للجاحظ ط الشركة اللبنانية للكتاب .
١٤ ـ التمهيد للباقلانى ط مصر ١٩٤٧ نشر أبو ريدة .
١٥ ـ الحيوان للجاحظ
١٦ ـ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن القيم ط بيروت
١٧ ـ المغنى للقاضى عبد الجبار ط ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٨ ـ النبأ العظيم أ . د / محمد عبدالله دراز ط ١٩٦٩
١٩ ـ الوحى المحمدى محمد رشيد رضا ط المنار
٢٠ ـ تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام د محمد على أبو ريان ط دار المعرفة الجامعية .
٢١ ـ ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط المعارف (سلسة ذخائر العرب)
٢٢ ـ جهد القريحه فى تجريد النصيحة للسيوطى ط ١ السعادة
٢٣ ـ حجج النبوة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ نشر السندوبى ط ١٩٣٣
٢٤ ـ خطط المقريزى ط التحرير

٢٥ـ دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ط المنار
٢٦ـ رسالة التوحيد محمد عبده ط المنار ١٣
٢٧ـ سيرة ابن هشام ط التحرير سنه ١٣٨٤
٢٨ـ شرح المقاصد مبحث السمعيات
٢٩ـ شرح تعليقات على العقائد النسفية صالح شرف ٢٨
٣٠ـ غاية المرام فى علم الكلام لسيف الدين الآمدى ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٣١ـ كشاف اصطلاحات الفنون .
٣٢ـ مجلة عالم الفكر مقال د / عبد الحافظ حلمى العلوم البيولوجية فى خدمة تفسير القرآن الكريم المجلد الثانى عشر ط ١٩٨٢ .
٣٣ـ مجلة معهد المخطوطات العربية الكويت المجلد الثامن والعشرون الباقلانى ومعلقة امرئ القيس مقال د / سليمان الشطى .
٣٤ـ مسألة القضاء والقدر عبد الحليم محمد قنبس ، خالد عبد الرحمن العك ط . دار الكتاب العربى .
٣٥ـ موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية ط السنه المحمدية
٣٦ـ نظرات فى القرآن محمد الغزالى .

تم بحمد الله وتوفيقه

رقم الايداع ٦٢٢١ / ١٩٩٠